ماذا يقول علم النفس عن الدين

www.christianlib.com

وين مي. اوتس

كتب للمفكرين

www.christianlib.com

ماذا يقول علم النفس عن الدين

تأليف

وين مي اوتس

تعريب

الفس طانيوس زخاري

www.christianlib.com

جميع الحقوق محفوظة

١٩٦٦
المنشورات المعدانية
ص.ب ٢٠٢٦ ـ بيروت

What Psychology Says About Religion
by Wayne E. Oates

By Permission
Association Press - New York
Copyright 1958

www.christianlib.com

مُقَدِّمة

نوجه هذا الكلام للعلمانيين ، عما يقوله علم النفس عن الدين. وعلى القارىء المحترف ان يذكر هـذا . ولقد تحاشينا اخطار المغالاة في التبسيط وفي التعميم ، وتغلبنا عليها بقـدر ما يسمح النطاق الضيق للصفحات القليلة التي يحتويها هذا الكتاب . ومع اني لم اهدف الى الكتابة للقراء المحترفين ، إلا اني شعرت شعوراً عميقاً بمسؤوليتي في أن اصوّر علماء النفس بطريقة لا يساء اليهم . مع ذلك تذكرت في نفس الوقت ان علم النفس حقـل واسع متنوع ، بحيث ان ارضاء جميع القراء المحترفين يستحيل عليّ ، بل قد تمنعني الرغبة في ارضائهم من تسطير اول سطر في هـذا الكتاب. لكني كنت ارجو ان الحوار الذي يثيره هذا الاختلاف السليم سيقود القارىء العلماني الى اعتبـار اعمق لعلم النفس ، وسيقود العالم النفساني الى اهتمام علمي بالدين . فان حققت هذا اكون قد بلغت هدفي .

www.christianlib.com

وقد زاد في صعوبة هذا العمل تعقيداً ان مـــا يقوله علماء النفس عن الدين قالوه كاشخاص عاديين، وليس كعلماء ممتهنين. وتعليقاتهم عن الدين ، ليست عـادة جزءاً من صياغة تأليفهم النفسي النظامي ، بل من صوغ اختباراتهم الشخصية . تبعاً لذلك فان المراجع التي يستعين بها المؤلف قـد تكون انتقيت لتحقيق اهدافه الخاصة ، في حين انها كانت المراجع الرئيسية التي بحث فيها الموضوع، اذ ان المؤلفين الآخرين كانوا يميلون الى الصمت .

وهدفي الرئيسي في هذه الصفحات هو أن اوصل للشخص غير المثقف في علم النفس ، والذي يجد نفسه مـــع ذلك يجابه بابحاث تجري بين اصدقائه واقاربه ، واعضاء كنيسته ، ورفقاء عمله ، هدفي أن اوصل لهذا الشخص شيئاً ذا معنى عن « ما يقوله علم النفس عن الدين » .

وين ي. اوتس

www.christianlib.com

الفصل الاول

ما هو علم النفس ؟

كثيراً ما استخدم التعبير « علم النفس » ، وما اكثر ما اسيء استخدامه . وهو يغطي أخطاء شائعة ، وآراء علمية كاذبة ، ونظريات علمية عن الحياة البشرية والاختبار الانساني . فاذا اردنا ان يكون لنا ادراك سليم لما يقوله علم النفس عن الدين وجب علينا ان نوضح اولاً الآراء الخاطئة ، والشائعة عن علم النفس ، ثم ان نقدّر علم النفس حق قدره .

الاخطاء الشائعة عن علم النفس

علم النفس كسحر : هل لاحظت الاهتمام الشغوف الذي يبدو على الناس ، عندما يثار موضوع النوام المغنطيسي ؟ فكم استُخدم التنويم المغنطيسي بغباء كأنه حيلة ساحر ، في حين لا

www.christianlib.com

يجب البتة استخدامه بدون اشراف طبي . بهذه الطريقة تماماً يتصور كثيرون علم النفس، يتصورونه كحقيبة من الحيل السحرية للعب على الناس . وعلينا ان نرفض هذا فوراً كسوء استخدام وسوء فهم لعلم النفس . ومن اوضح الامثلة على هذا النوع من التفكير السحري ما يبدو عندما يذهب بعض اشخاص الى عالم نفساني لاستشارته وطلب معونته ، وهم يظنونه شخصاً عنده كلمة سحرية ، بطريقة قاطعة نهائية ، يهز عصاه السحرية الجنية ، فتزول كل متاعبهم . أجل هذه « الكلمة السحرية » تنتظر ، الا ان مهارة العالم النفساني في تقديم نصيحته ومشورته تتطلب وقتاً وصبراً ، حتى يعرف المريض كشخص ، وتنشأ بينهما علاقة ثقة وامانة متبادلتين . ومساعدته تأتي نتيجة الاثر المتجمع من مقابلة بعد اخرى . وهو يعمل مع طالب المشورة في ازالة العقبات المانعة لنموه الشخصي ، والبقع العميقة العمياء عن التغييرات التي يلزم ان تتم في حياته ، اذا ما اراد ان يصبح الشخص الذي تدل عليه طاقاته وامكاناته . وهذا لا يتأتى بطريق السحر ، بل بطريق التدريب ، والصبر ، والشجاعة .

علم النفس كطريقة للتسلط على الناس . هنا ام يطرح عليها هذا السؤال : « ماذا فعلت بابنك جوني حتى نام ؟ » فتجيب

www.christianlib.com

قائلة « استخدمت معه قليلاً من علم النفس . » تحيي سكرتيرة راعيها وتمدحه على مقدرته في حشد الناس لعمل ما يريدهم ان يعملوه ، فتراهم ينفذون ارادته وكأنهم رهائن اشارته وهم لا يشعرون . ويعتبر بعضهم هذا النوع من الحيلة وخفة اليد ، كأنه « علم نفس . » واذا الحجت عليهم ، تراهم يعرفون علم النفس كسبيل لجعل النـــاس يفعلون ما تريده منهم ، دون ان تجعلهم يشعرون بذلك . ونحن نسلم بان الدعايات قد اخذت المكاسب التي حصل عليها بمجهود شاق علم النفس وعلم طب الامراض العقلية ، وحولتها الى « مقنعين مستترين . » ونسلم بأن ناشري الدعاية في كل صنف وصورة ، قد استخدموا الوسائل النفسانية كوسيلة للا « تثقيف الالزامي » والتأثير العميق على عقول الناس وتفكيرهم بصورة خفية . لكن علماء النفس المكرسين لعملهم كعلم ، لا كوسيلة لاغراض خلقية غير علمية ، يقولون ان هـــذا نقض لكل مبدأ يدافعون عنـــه . انه يحول الاشخاص الى « اشياء » ، وهذا يجب ان لا يكون مطلقاً . لانه كما يقول كارل رودجرز وهو من عظماء علماء النفس في عصرنا :

« ان العلاقة بين العـــالم النفسي ومستشيريه هي علاقة بين

www.christianlib.com

شخصين ، يجتمعان على صعيد عميق ذي اهمية ، لا بين شخص وغرض معقد . »

علم النفس كالاستبصار . يفترض في من يرى الاشياء غير المنظورة ان يكون قادراً على رؤية ما في الآخرين ، وادراك سير الحوادث البشرية بطريقة خاصة خفية . والرأي الشائع عند كثيرين من الناس في علم النفس هو انه الاستبصار . ويسمى عالم النفس بنوع من التفكهة بأنه «قارىء العقل» ، اي الشخص الذي يقدر ان يخبرك بما تفكر فيه ، سواء كنت تفكر ام لا . وقد ساعد على انتشار هذه الفكرة الخاطئة كثيرون من علماء النفس الكاذبين او غير الناضجين ، الذين قال عنهم مارتن بوبر انهم يعاملون كل الكائن البشري كمجموعة اجزاء كل منها يخفي الآخر ، وهو لذلك في حاجة الى الكشف او رفع الشعار او فصل الواحد عن الآخر .

ان عالم النفس ، على نقيض هذه الافكار الخاطئة ، خاضع لقوانين التعرف على شخص ، حتى يمكن فهم ذلك الشخص وتقديره ، كما هو الحال مع أي شخص آخر . فهو يهتم بالملاحظة ، والتعريف ، والتنظيم بطريقة علمية ، بها يخضع نفسه لهذه القوانين . وهو يهتم ايضاً بتعليم هذه القوانين للآخرين ، لا ان

www.christianlib.com

يحفظها كبعبع وسر خاص يخيف به الناس . ان عـالم النفس الحقيقي هو غـالباً معلم ، وقد كرس نفسه لتعليم مبادىء الحياة المختبرة المعلنة ، اكثر منه لممارسة الحِيَل السرية الغامضة والسحر .

علم النفس كعلم موحد متفق عليه اتفاقاً عامـاً . من الافتراضات الخاطئة عن علم النفس في يومنا الحاضر الافتراض الواضح في القول : « يخبرنا علم النفس ... » هذا المنطق المغلوط الذي تتضمنه هذه الكلمات يدل ضمناً على ان علم النفس أمر متفق عليه بوجه عـام ، اشبه بقولنا « يخبرنا علماء الفلك ان الارض مستديرة ، وان الشمس تشرق من المشرق كل صباح » .

لما نسأل : « ماذا يقول علم النفس عن الدين » نقع في خطأ علينا ان نقاومه بكل شدة ، وان يكون واضحاً جلياً امامنا . مثلا نستطيع ان نقول بتدقيق ، ان بعض علماء النفس يرفضون صحة الاختبار الديني وشرعيته . عند ذلك نكون في مركز معه نسأل : « اي علماء النفس ؟ » وبعد ان نجيب عن هذا السؤال ، علينـا ان نسأل سؤالاً آخر : « هل يرفضون صحة الاختبار الديني وشرعيته بسبب معلوماتهم ومبادئهم كعلماء نفس ، عن طريق استخدام وسائل علم النفس ، وعلى اساس دراسات نفسية محددة لاختبار ديني ؟ أم هل يرفضون الدين لاسباب شخصية

www.christianlib.com

عندهم ككائنات بشرية ، وهل كانوا يفعلون ذلك حتى لو لم يكونوا من علماء النفس ؟ »

للاجابة عن هذه الاسئلة تأثير هام على التصريحات الاجمالية عما يقول علم النفس عن الدين لان لعلماء النفس تفاسير عديدة متنوعة للدين كما سنرى فيما بعد .

هذا الفهم الخاطىء الخاص لعلم النفس يوجه الفكر الى عدد من « المزالق الرملية » التي تزلق فيهـــا ابحاث كثيرة من نوع الابحاث التي نحن بصـــددها . فمثلا عندما نسمع عالماً من علماء النفس يقول شيئاً يثني به على الدين او يحط من شأنه ، نستنتج فوراً ان كل علماء النفس يقولون نفس الشيء. فضلاً عن ذلك، عندما نسمعه يقول ان الدين هو في **بعض الحالات** اعتماد طفولي اكثر من اللازم من شخص على والديه نخمن فوراً أن **كل** علماء النفس يعتقدون ان دين **كل انسان** هو **دائماً** على هذا النحو . وما اكثر ما يستعجل علماء النفس انفسهم في الوصول الى هـــذا التخمين ، مطلقين تعميمات عن الدين ، على اساس ملاحظات ومشاهدات عرضية طارئة ، لا على اساس بحث علمي دقيق في الموضوع . لكن علينا نحن ان نتجنب بكل دقة سوء تفسير هذه الملاحظات ، كما نتجنب الوقوع في مزالق المبالغة في التعميم .

www.christianlib.com

فهم اوضح لعلم النفس

علم النفس : علم حديث . قال كرت لوين وهو من أكثر علماء النفس المعاصرين ادراكاً ، قال بعنايـــة دقيقة ، ان علم النفس يجب ان يفكر فيه كعلم حديث . ولا غرو فان اول مختبر علمي لعلم النفس اسسه فلهم فنت في ليبزغ بالمانيا عام ١٨٧٩ . والجمعية الاميريكية للابحاث النفسية تأسست عام ١٨٩٢ . على ذلك يكون حقل علم النفس علماً لم يبلغ من العمر سوى اكثر قليلاً من نصف قرن . وقـــد صار هذا الحقل في بعض دوائر العلم « ادق » او اضبط مما في غيرها . فمثلاً علم النفس في نواحي الاحاسيس والادراك ــ بعبـــارة اخرى ، في درس الحواس الخمس ، ونماذج المعاني المستمدة فيهـــا ــ اصبح ادق واضبط اختبارياً .

اما في دوائر اخرى ، مثل علم نفس الشخصية ، فنراه يسير على نمط اقل دقة وضبطاً ، على اسس أكثر افتراضية وتخميناً في البحث . ولا يزال علماء النفس ينشئون ويطورون تخمينـــات وافتراضات عن « نماذج نظرية » للشخصيـــة . ويحاول العالم النفساني ان يكوّن نموذجاً للمعاني العامة ينطبق على جميع الحقائق على حد سواء ، في كل دوائر علم النفس . وهو اذ يفعل ذلك ،

www.christianlib.com

لا يعمل افتراضات اكثر من اللازم ، ويحاول ان يعدّل معانيه العامة على اساس الحقائق الجديدة التي يكتشفها . او كما يقول لوين : « في بحث من هـــذا النوع ، على العالم النفساني ان يعالج الانسان ككل ، بدرجة اكبر جـــداً مما في درس الحواس » . وهـــذا النوع الاخير من علم النفس اكثر جداً ملاءمة وتفهماً لاهتمامات البشر الدينية ــ اي كما يقول لوين ونقتبسه مرة اخرى « لمثل الفرد وآماله ، وعلاقاته الاجتماعية . »

علم النفس : فن وعلم . يتضح مما تقدم ان علم النفس يجب ان يفهم على انه فن وعلم . ففي دائرة الفن ، نجد ان قوانين اللون ، والضوء ، والظل ، والابعاد وغيرها في عمل من اعمال الفن مضبوطة . مع ذلك ، فان عمل الفنان يتطلب منه اكثر مما يتطلب من هـــذه القوانين . فلا بد ان يكون له خيال خلاق ، وطاقة على تفسير كل الحياة بواسطة بصيرته الفنيـــة وادراكه النافذ . ان العلاقة بين فن العالم النفساني وعلمه اشبه بالعلاقة بين دخول الدم الى القلب وخروجه منه ، بدون احدهما لا يكون هناك وجود للآخر . والعلاقة بينهما اشبه بالمعرفة والاختبار عند الشخص المتدين . ان المسيحي يحتاج ان يعرف حقائق الكتاب المقدس ، والتاريخ المسيحي ، لكنه يستطيع ان يعرف كل هذه

www.christianlib.com

دون ان يكون مسيحياً . فكونه مسيحياً يعني اكثر كثيراً من مجرد ملء رأسه بالحقـــائق الكتابية . وكذلك الحال ايضاً مع عالم النفس ، فانه اكثر بكثير من مجرد مدرك للحقـــائق الموضحة اختبارياً في حقل علم النفس . ان الامر يتطلب البصيرة الخلاقة ، وفهم الشاعر ، والفيلسوف ، والنبي لخاصية الحياة . وعنـد هذه المطالب بالضبط ، يبدأ العالم النفساني ان يقول شيئاً ذا اهمية بالغة عن الدين . وهنا يصبح العالم النفساني مفسراً للحياة البشرية ، بالاضافة الى كونه شخصاً يصف ما يراه .

علم النفس : وسيلة للمشاهدة والبحث . ان العـالم النفساني مكرس ، ككل عالم آخر ، للطريقة العلمية في مشاهدة حوادث السلوك البشري، وتسجيل نتائج مشاهداته، واكتشاف العلاقات المتداخلة المسببة لهذه الحوادث التي يشاهدهـــا . وبعض دوائر الاختبار البشري ، مثل الحساسية للألم ، والضوء ، والصوت ، والذوق ، والرائحة ، اقرب للمشاهدة من غيرها مثـــل العزم والتصميم ، وتغيير فكر الانسان ، والشعور بالذنب ، والعبادة . وطبيعي ان يكون النوع الاول اقل تأثراً بالعوامل الشخصية من الاخير ، لان عالم النفس على أفضل الاحوال ، خاصة عندما يبدأ ان يستخلص نتائجه عن نواحي الحياة البشرية ، النواحي

www.christianlib.com

التي لا تلمس ولا تدرك بالحواس ، يعرف ان مشاهداته ما هي الا مشاهدات شخص له نصيب وتأثير في الاختبار . وهـذا ما يسمى بـ « مشاهدة المشارك » . وقـد ابتكر فكرة « مشاهدة المشارك » هـذه ، هاري ستاك سوليفان ، وهو يعني بها ان عالم النفس يشارك هو نفسه في خلق السلوك الذي يشاهده في الشخص الآخر . فهو متداخل في علاقة مع الشخص ، علاقة لا بد من الدخول فيها حتماً كجزء من مشاهدة الخبير .

لذلك فان علم النفس ، كعلم ، يهتم ليس فقط بالمشاهدات المجردة من العوامل الشخصية، بل أيضاً بالاستبطان. والاستبطان هو طريقة ذاتية للمشاهدة ، فكثير من البحث النفساني يشمل مشاهدات العالم النفساني لردود فعله الخاصة . نذكر مثلاً لذلك كتاب تفسير الاحلام ، تأليف سيغمون فرويد ، الذي فيـه يسجل ، ويشاهد ، ويفسر الكثير من احلامه الخاصة ، كما يفسر احلام مرضاه .

تبعاً لذلك ، عندما نسأل ، ماذا يقول علم النفس عن الدين ، نريد ان نعرف ان كان ما يقوله مبنياً على المشاهدة الدقيقة والطاعة الامينة لاصول البحث وقوانين التقصي الدقيقة . ونريد ان نعرف في نفس الوقت ، باية طريقة يتدخل عالم النفس

www.christianlib.com

شخصياً « مشاركاً » في ملاحظاته ونتائجه عن الدين . وإلا تكون آراؤه واقواله عن الدين نابعة ، لا من عمله كعالم نفساني ، بل من ميله الشخصي نحو الحياة . وفي هذه الحالة تكون آراؤه مهمة ، ولكن ليست أهم ، ولا يجوز أن يعطى لها وزن اكثر من رأي أي شخص آخر من غير علماء النفس .

علم النفس : علم متعدد الجوانب . قد تكون مستعداً ان تقول : « انك تنتظر اكثر من اللازم عندما تطلب من عالم النفس ان يطبق عمله على الدين ، بشكل وثيق وبدرجة كافية تتيح له ان يقول شيئاً يلبي مقاييس صلاحيته كعالم . » بالعكس يمكن ان يقال بطريقة جازمة ان الاختبار الديني دائرة من دوائر الاختبار البشري الكثيرة التي جرى فيها مجهود علمي دقيق ، من علم النفس الغني المتنوع المتعدد الجوانب . وستكون هذه الدراسات المادة التي يتكون منها سائر هذا الكتاب . ولا يزال هناك حاجة ماسة الى الدرس العلمي للدين وانما ما تم للآن كان له اثر اعظم بكثير من نسبة المجهود الذي بذل فيه .

لكن يكفي ان نقول ان علم النفس علم متعدد الجوانب ، وان الدين جانب واحد فقط من الجوانب الكثيرة التي طبق فيها . ولمحة خاطفة للملخصات والمختصرات التي تعتبر أقوى

www.christianlib.com

حجـــة في مراجع علم النفس ، **ملخصات علم النفس** ، تبين مدى اتساع هـــذه الدوائر . نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر قليلاً منها : علم النفس العـــام ، علم النفس الفسيولوجي ، علم النفس التطوري ، عـــلم النفس الاجتماعي ، علم النفس الاكلينيكي ، الاستشارات التوجيهية ، علم النفس التهذيبي ، علم النفس الخاص بالموظفين ، علم النفس الصناعي ، علم النفس الديني ، علم النفس العسكري .

ان تعدد هذه الحقول للاهتمام يشدد في ذاته على الفكر الذي سبق ان اوردناه ، وهو ان علم النفس لا يتفق على رأي واحد في جميع المجالات ، كما يظن طالب مبتدىء عندما يبدأ اول منهج في علم النفس. ان الاهداف المتعددة الانواع لعلماء النفس تجعلهم يصلون الى نتائج مختلفة . ان عالم النفس التجريبي ، الذي يرى نفسه عالماً « محضاً » ، تراه على الارجح يسمي زميله عالم النفس الشخصي ، فيلسوفاً ، لا عالماً نفسياً على الاطلاق . والعالم المختص بدرس الشخصية قد يسمي عالم النفس التجريبي بعالِم الاحياء او عالِم وظائف الاعضاء لا عالماً نفسياً على الاطلاق . وكلاهما لا ينسجمان مع طبيب الامراض العقليـــة مطلقاً ، الذي همه الاساسي معالجة المرضى عقلياً .

www.christianlib.com

ان عالم النفس الاكلينيكي يقف اليوم بين نوعين من محاولات التقرب لعلم النفس ، المحاولات التجريبية والمحاولات الطبية . فهو نوع من الوسيط ، مرتبط بطريقة حقيقية بدقة الوسيلة التي تميز عالم النفس التجريبي ، كما انه مهتم كطبيب الامراض العقلية بمرضاه . ونتيجة لذلك نجده يقدم خدمة اعظم لفهم الدين . ولنا ان ننتظر منه وسائل ممحصة أكثر لدراسة الاختبار الديني . ويبدو ان اهداف ووسائل كل هذه النواحي المختلفة لعلم النفس ، تزداد تقـــارباً واتحاداً في الاتجاه عما كانت عليه في الماضي . وصارت تأتي في نتائج بحثها بمواد ومعلومات ونظريات تكوينية ملائمة ومهمة للتفسير الديني للحياة . ولبعضها اثر في هذه الناحية أكثر مما لغيرها ، ولقليل منهـــا سكوت حريص في الموضوع كله ، كما سنرى .

علم النفس : مادة خاصة من المعرفة . ولو أن علم النفس علم حديث متعدد الجوانب ، ولو انه لا يتفق اتفاقاً عاماً تاماً بأي حال ، إلا أن علماء النفس قد نبشوا وكشفوا مادة خاصة من المعرفة . وقد صارت اكثر نظرياتهم استخداماً جزءاً من تراثنا الثقافي ، يؤثر في تفسيرنا الديني للحياة بطرق كثيرة حيوية . فمثلاً في حقول الاحساس والادراك ، صارت المعلومات التي قدمهـــا

www.christianlib.com

علماء النفس حقائق معينة متفقاً عليها ، تستخدمها العلوم التطبيقية لفائدة الانسانية فائدة كبرى . خذ مثلاً الفائدة التي جنيناها في دراسة النظر ، وتقويم واصلاح نقائص النظر ، وهلم جرا . او خذ مثلاً الطريقة التي صارت بها فكرة الوعي واللاوعي شائعة في افكارنا اليوم . وقد اصبحت الابحاث التي تجرى عن اساليب التفكير، مثل خلق مبررات للذات ، والكبت، والتفكير التعويضي ، جزءاً كبيراً من تفسيرنا للحياة ، لدرجة معها لا نستطيع ان نرفض هذه الآراء ، دون ان نستعين بها في براهيننا وحججنا ضدها . اذاً قد صار علم النفس كفن وعلم ، جزءاً ظاهراً جلياً من سدى ثقافتنا العصرية ولحمتها ، ومن نسيج رأي الانسان عن نفسه كشخص ديني . لهذا تبدو الحاجة الملحة لمعرفة «ما يقوله علم النفس عن الدين» واضحة جلية. لكن يلزمنا ان نعرف اولاً المجالات التي يسكت فيها علم النفس ، والتي ليس له فيها ان يقول شيئاً عن الدين .

www.christianlib.com

الفصل الثاني

أين يسكت علم النفس في موضوع الدين ؟

بعض ضروب علم النفس ، بطبيعتها ذاتها ، لا تتكلم اطلاقاً عن الدين . وقد يكون سبب ذلك ان هذا الفرع الخاص من علم النفس محدد تحديداً ضيقاً ، بحيث ان أي شيء خارج دائرته الضيقة جداً ، يعتبر غير موافق . او قد يكون صمته ناتجاً عن كون هذا الفرع من علم النفس محصوراً حصراً تاماً في تطبيقه على دائرة واحدة ، بحيث تستثنى كل دوائر التطبيق الاخرى .

مثلاً قد يكون علم النفس محدداً تحديداً ضيقاً بطرق عديدة، بحيث لا يكون له شيء يقوله عن الدين . فعندما يحزم علم النفس امره كـ « علم مضبوط » مثل الفيزياء او الكيمياء ، يكون بذلك قد حدد دائرة اهتمامه واختصاصه . وقد كان علم نفس كهذا واضحاً بيناً في السنين الاولى من علم النفس العلمي ، كما هو ظاهر

www.christianlib.com

في مؤلفات فلهلم فنت و ي. ب. تتشنر وغيرهما . لقد حصر هؤلاء تجاربهم في دراسة الاحساس ، والصورة ، والادراك . وانشأوا وطوروا وسائل تطبيق علمية بارعة جداً ، في قيـــاس المؤثر او المنبه الضروري لتنبيه اطراف اعضاء الاختبار الحسي . ولقد قدم هؤلاء العلماء المكرسون خدمات عظمى . انما عندما يقرأ الانسان ابحاثهم ، لا يسمع منهم شيئاً يقولونه عن الدين . ويحاول عبثاً ان يجد اشارات عن مشاكل مثل طبيعة الشخصية ، ومعنى شعور الانسان بالاثم ، واهميـــة القبول والرفض ، ونمو الشخصية . هذا وان علماء النفس الفلاسفة الاوائل ــ امثـــال جون لوك ــ بحثوا الاحساس والادراك ، وانمـــا رفضوا مبدأ الافكار الغريزية وبهذا اثاروا بحثاً لاهوتياً عظيماً . وقد كتب فلهلم فنت نتيجة ابحاثه الضخمة في علم النفس والاخلاق المعروفة لدى عامة النـاس . لكن علماء النفس المعاصرين يبحثون الدين منفصلاً . مثلاً يظهر علماء النفس المعاصرون اهتمامهم بالدين كأناس علمانيين لا كعلماء نفس ممتهنين . فيتكلمون عن الدين منفصلاً عن تدريب علم النفس ، الذي يحددونه تحديداً ضيقاً صارماً يستثني الدين .

علاوة على ذلك ، قد يكون علم النفس محصوراً حصراً ضيقاً

www.christianlib.com

في دائرة واحدة للتطبيق ، بحيث يمتنع كلية أي بحث في الدين . مثلاً دراسة علم نفس الحيوان قد تكون بعيدة كل البعد، وليست لها أية صلة مباشرة بحقل الاختبار الديني اطلاقاً . ثم من ناحيـــة اخرى ، قد يكون عالم النفس مكرساً لعمله تكريساً عميقاً تاماً ، فيجب أن لا يفسر سكوته عن موضوع الدين بوصفه عالمـــاً نفسانياً ، على انه دليل على عدم الاكتراث ، او الخصومة ، او العطف ، أو أي شعور من هـــذا القبيل . بل يجب ان يفسر بالاولى على اساس أن لا علاقة لفرعه في علم النفس مع الدين .

قد يرى عالم النفس الصناعي أن علمه يختص فقط بضغط عاملي الوقت والحركة في سير عمليـــة الصناعة . فاذا سئل ماذا يقول علم النفس الخاص به عن الدين ، ربما يجيب ان هذا السؤال لم يخطر قط ببـاله . او خذ مثلاً آخر ، التجارب النفسية التي تجرى في الوقت الحاضر ، على الطب الفضائي . ان العالم النفساني الذي يكرس حياته لدراسة المشكلات الخاصة الدقيقة جـــداً ، التي تحدث لقائد مركبة فضائيـة عنـــد « انعدام الجاذبيـة » قد يصمت صمتاً مطبقاً اذا طلب منه التعليق عما يقوله علم النفس عن الدين . ان الشخص العـادي المتوسط ، الذي لم يتعود على الضرورات المضنية القاسية التي يتطلبها بحث هائل في تخصصه ،

www.christianlib.com

يلقى صعوبة كبرى في تصور الطريقة التي بها تمنع هذه التدريبات كل انتباه لهدف آخر ، ما عدا البحث الذي ينصب الدرس عليه.

ومع ان بعض حقول علم النفس تصمت عن الدين بطبيعتها ، الا انه تظهر نغمات دينية صحيحة في عمل هؤلاء العلماء . فالمعاني الانسانية التي تتوصل اليهـــا نتائج ابحاث علم النفس للعميان والمكفوفين ، يمكن ان تحمل مضامين دينية عميقة جداً ومثيرة للغاية . وهكذا الحال مع التدريب الشخصي والتكريس المتفـاني لعلماء النفس ، في هذه الانواع المحددة جداً ، فان له طبيعة دينية في ذاته ومن ذاته . فامثـــال هؤلاء العلماء تثيرهم مشاعر مماثلة لمشاعر الشخص المتدين حقاً ــ مشاعر من الرهبـــة ، وحب الاطلاع ، والتعجب ، والشعور بالاسرار الخفية ، واحترام عميق للشخصية البشرية . بل كثيراً ما يملأهم احترام من النوع الذي يفاخر به كثيرون من المتدينين العديمي التأثر . إلا اننـــا عندما نسمعهم يتكلمون **كعلماء نفس** ، لا نسمعهم يبحثون في الدين .

وهناك اسباب اعمق كنهها ، وهي شخصية أكثر من غيرها ، تدعو امثـال علماء النفس هؤلاء للصمت في ما يختص بالدين ، ويجب ملاحظتها . ففي اغلب الاحيان يعيش علماء النفس حياة مجزأة ، فان التهـــذيب الدنيوي الذي هيأ لهم ان يقفوا موقف

www.christianlib.com

الممتهنين كعلماء النفس ، لا سيما في اميركا ، تطلّب ان يقف مربوهم موقف الصمت في موضوع الدين . علاوة على ذلك ، فان تهذيب علماء النفس كان دائماً يمتاز بتخصص عال في دائرة الاحصائيات ، والمقاييس ، والطبيعيات ، وعلم وظائف الاعضاء ، وقد يكون هناك نقص عام للتهذيب الاساسي في علم الانسانيات الذي يشمل الفن والدين . ان صمت علم النفس في موضوع الدين هو جزء لا يتجزأ من كل الفلسفة الثقافية في مدارسنا . وقد فُسِّرَ فصل الكنيسة عن الدولة شرعياً بطريقة تمنع أي حوار في المعاني الدينية للمواضيع التي تدرس . وهذا ينطبق على كل المواضيع ، ولا يستثنى منها علم النفس .

ولكن اذا اردنا ان نسبر اغواراً اعمق من هذه ، علينا ان ندرك ان علماء النفس كثيراً ما يصمتون في موضوع الدين لانهم هم انفسهم لم يحظوا بتعليم ديني . لقد كانوا هم « الخراف الضالة » واهملتهم الكنائس خصوصاً في اثناء تلقيهم تهذيبهم . وقد كانت البروتستانتية المعاصرة بنوع خاص ، متباطئة في انتهاز فرصتها في توصيل الانجيل المسيحي للشخص الممتهن . فكم افترض البروتستانت ضمناً ان العالم النفساني لا يهتم بالدين ، بسبب كونه عالماً نفسانياً ليس إلا . وفي الواقع هذا حكم

www.christianlib.com

سابق ، ناجم عن تفكير جامد . هذا التفكير الجامد يمنع التفكير الصحيح الصريح ، ويجعلنا نصنف الناس اصنافاً جامدة بالنسبة لبعض صفاتهم حسب التصنيف الشائع . فقد نفترض مثلاً ان كل الاسكتلنديين بخلاء ، او ان كل الشرقيين كرماء ، او ان كل الزنوج كسالى ، وان كل علماء الطبيعة لهم لحى طويلة ونظارات سميكة ، وان كل علماء النفس ينبذون الدين . هذا فكر جامد والسبيل الوحيد للتغلب على هذا الفكر المُجحف وطرده من اذهاننا ، هو ان نحفظ عقولنا متفتحة ، ونكوّن رأينا عن كل عالم نفساني بمفرده كشخص ، على اساس اختبارنا الشخصي له ، وليس على اساس صور كاريكاتورية او تصنيفات شائعة عن مهنته .

قد يصمت بعض علماء النفس الآخرين في موضوع الدين لانهم تعرضوا للدين بطريقة خاطئة . يقول بول تلخ « كلنا نعلم الالم الذي نقاسيه عندما نقابل اناساً يرفضون الانجيل مع انه لا سبب لهم في رفضه ، أو نقابل اناساً آخرين لا يستطيعون ان يتخذوا قراراً سليماً عنه ، اذ ان الانجيل لم يوصل لهم قط بطريقة مناسبة » . وهناك كثيرون من علماء النفس يصمتون في موضوع الدين ، بسبب الافكار الخاطئة التي قدمت لهم عن الدين، فتراهم

www.christianlib.com

اشبه بوليم سمز من رواد علماء الاجتماع ، ويقال عنه انه وضع دينه في الرف الاعلى من خزانة ثيابه ، فلما عاد ، بعد عشرين عاماً قضاها يتعلم ويتهذب ، بحث عنه ، فلم يجده . وكان جانب من هذا الاهمال يعزى الى ان نوع الدين الذي تعرض له في البداءة ، كان اشبه بملح قد فقد ملوحته .

نقدم مثلا على ذلك سيرة حياة سيغموند فرويد . يقول ارنست جونز ان فرويد « شب بعيداً عن اي اعتقاد في الله أو في الخلود، ولا يبدو انه شعر قط بحاجته اليه . » وهذا يمثل الشخص الذي قطع من اصله الديني ، ونما دون أي تهذيب ديني على الاطلاق . من الناحية الاخرى تعرض فرويد للدين بعد ذلك بطريقة جافة ، وبأسوأ الحالات ، في كراهة المسيحيين لليهود . ويخبرنا جونز ايضاً كيف احاط جماعة من المسيحيين بوالد فرويد ولطخوا ثيابه بالوحل . وشعر فرويد انه كان على ابيه ان يدافع عن نفسه ويحارب ضاربيه . وشعر كما شعر هانيبال بن هاملكار ، واقسم ان ينتقم كما انتقم هانيبال من الرومان .

وهناك سبب اقوى من هذه الاسباب يدعو عالم النفس للسكوت في موضوع الدين ، وهو ان كثيرين من علماء النفس لا يريدون ان يقصوا انفسهم عن اناس ينتمون الى ديانات اخرى ،

www.christianlib.com

او اناس لا دين لهم . هذا سبب مهني للسكوت عن الدين ، وهو سبب نستطيع ان نحترمه اشد احترام . فان علماء النفس هؤلاء يفضلون ان يعبروا عن دينهم بسكوت على ان ينادوا به ويدافعوا عنه بصوت عال .

يقول مثلاً الاستاذ روبرت مكلويد استاذ علم النفس في جامعة كورنل ، ان عالم النفس العميق التدين في امريكا « لا يجد في الدين تهديداً لحريته ، كما قد يلقى في بعض بلاد اخرى ، لكنه يعلم ان وضع علامة « متدين » عليه مجازفة بفقدان مركزه بين زملائه المحترفين . » وقد لا يكون هذا بسبب كون زملائه المحترفين هم بالضرورة « غير متدينين » — بل قد يكون فقط بسبب رفضهم « استخدام » زميلهم الدين لاذاعة شهرته مهنياً . ويبدو هذا بشكل واضح بين علماء طب الامراض العقلية ، الذين يحربون باغراء المرضى للاتيان اليهم بسبب مظهر ما للدين عندهم . اما هؤلاء فيفضلون ان يحصلوا على مرضاهم على اساس كفاءتهم وتفوقهم كاطباء ، لا على اساس أي اعلان « دبني » يمكنهم الفوز به . لذلك تراهم على الارجح « لا يعرِّفون شمالهم ما تفعل يمينهم » عندما تسنح لهم الفرصة ان يكونوا « متدينين » امام الناس . وفي ايامنا هذه ايام الدعاية

www.christianlib.com

القوية « للدين » جدير برجال الكنيسة ان يتمسكوا ويقتـدوا بهذا السبب الذي يحـدو بعلماء النفس ان يسكتوا في موضوع الدين .

وأخيراً جدير ان يقال ان المؤلفات العصرية في علم النفس تصمت صمتاً عجيباً عن النوع المسيحي من الدين . فمن النادر ، ان لم يكن معدوماً ، أن تجد عالماً نفسانياً يبحث خصائص طريقة المسيحي في حياته ، تلك الخصائص الممدوحة من وجهة النظر النفسية. وهذا يصدق بنوع أخص على علماء النفس البروتستانت. أما الديانة الكاثوليكية فتختلف من هذه الوجهة . فانك تجد مثلا جمعية علماء النفس الكاثوليك هيئة نشيطة جداً ، وهي تقـدم التفسير الكاثوليكي الخاص لعلم النفس وأثره على أبحاث مهنتهم بطريقة علنية ، لا خجل فيها ولا استحياء .

يشكو كثيرون من المسيحيين الاتقياء هذا الصمت الخاص من جانب علماء النفس ، في موضوع الدين . ونحتاج ان نتقصى الاسباب التي تدعوهم لهذا الصمت . وأولهـا ان العالم النفساني يرى ان عليه ، بسبب متطلبات علمه ، ان يبذل أقصى طاقته حتى يكون علمياً وغير متحيز . ثم ان العالم النفساني ، عندمـا يتجه لمشكلة اختبار ديني ويريد ان يقول شيئاً بشأنها ، يحاول عادة ان

www.christianlib.com

يحـــدد العناصر المشتركة في كل دين صحيح أو سليم ، دون ان يتقيد بطريق ديني خاص ، او تعليم ديني خاص . وتكون النتيجة الأخيرة لهذا الصمت « عملية تسوية » تحجب فيها الفروق النوعية القائمة بين التفاسير الدينية للحياة . كذلك تحجب هـــذه الفروق برغبة خاصة في الوصول الى الناحيـــة العملية التي تقود الانسان غالباً الى التفكير بأن حقيقتين على طرفي نقيض ، متساويتان في القيمة، ما دامتا تؤديان الى نفس النتائج. وهذا قد يكون صحيحاً او خطأ . انما التقرب من الموضوع ومعالجته بهذا الشكل يتداعى عندما نسمع الناس يقولون : « ليس مهما ما تؤمن به ، ما دمت تصل عن طريقه الى الموقف السليم ، ويكون قلبك في الموقف السليم » .

هناك نتيجة اخرى لهذا الصمت من جانب علماء النفس في موضوع الدين ، وهي ظاهرة بشكل واضح في أثر علم النفس في جعل الدين دنيوياً . وهنا يبسط أمامنا نوع من الدين «الشائع» السطحي ويختصر الدين الى أقصر مقـــام . وتخلط كل أنواع المعتقدات الدينية ، بغض النظر عن التناقضات الواضحة بينها ، ويتم التوفيق بين الآراء والمذاهب المتناقضة . وهـــذه النتيجة الأخـيرة من الاسباب التي تستهوي كثيرين من علماء النفس

www.christianlib.com

للافتتان بالاديان الشرقية في هذه الايام . فأديان الشرق الاقصى اديان خليطة، خلافاً للاصول الاساسية للدين المسيحي. فالانسان يستطيع مثلاً ان يكون بوذياً ، وكونفوشيا ، وشنتوياً في نفس الوقت . أما الايمان المسيحي فيصور الله ، ابا ربنا يسوع المسيح ، إلهاً فذاً فريداً ، يتطلب كل ولاء المسيحي ، ويمنع الاشتراك في عبادة آلهة اخرى . على ان المسيحي مجرب اكثر من غيره ، ان يؤله تفسيره الخاص للايمان المسيحي . وهو بعمله هـــذا يفقد ادراكه الواسع لمعنى الفداء المسيحي لجميع الناس في كل مكان . وكثير من فهمنا الضيق السطحي الضحل للانجيل ، يضمحل الى درجة كبرى ، أمام درسنا الديانات غير المسيحية دراسة جدية . ولا يتضح لنا تفرد الايمان المسيحي ويظهر بأجلى بيـــان الا عندما نهتم اهتماماً جدياً بهذه الديانات .

اذاً يحتاج علم النفس ، في النقط التي يصمت فيها عن الدين ، الى بعد النظر المنقي للحوار المفيد مع علم اللاهوت. وهذا الحوار بين كليهما ، يجب ان يكون نشيطاً مثيراً للتفكير . وستعالج الفصول التالية من هذا الكتاب هذا الحوار . ونبدأ الآن ببحث ما يقوله علم النفس عن الدين ، ولا سيما ملاءمته للتفسير المسيحي للحياة . انما لا بد من ملاحظة ختامية هنـــا . ان السبب الحقيقي

www.christianlib.com

لحيرتنـــا في محاولتنا فهم ما يقوله علم النفس عن الدين ، يكمن فقط في الامور التي يصمت فيهـا ، او يجب ان يصمت فيهـا علم النفس فلا يقول شيئاً عن الدين . ان علماء النفس الذين يحددون تطبيقهم لعلم النفس تحديداً ضيقاً ، او يغـــالون في تخصيص ذلك التطبيق ، يميلون الى التكلم عن الدين اعتباطياً . ومثالاً على ذلك الاستاذ الذي يلقن دروساً ابتدائيـــة في علم النفس فيقدم ملاحظات جانبية عن الدين ، تاركاً انطباعات على تلاميذ الكليـــة غير الناضجين ، بانه يتكلم باسم علم النفس عن الدين . وهكذا الحال مع المسيحي التقي جـــداً ، الذي هو عالم نفساني . فقد يحيط موضوعه « بهالة » من التقوى ، حتى لو كان بحثه لم يتعد قط تجارب اختباراته على الحيوانات . لذلك نحتاج ، كما قلنا سابقاً ، ان نتأكد ان العـــالم النفساني الذي نحن بصدده يتكلم عن الدين ، ولا يعبر فقط عن تحيز شخصي . والا فقد يكون شخصاً اتقن ناحيـــة معينة ضيقة جداً ومحددة جداً في الحياة ، وبدأ يتكلم كشخص حجة في كل شيء بوجه عام .

www.christianlib.com

الفصل الثالث

الدين : هل هو استعباد للأحلام أم حرية للنمو ؟

عندما يبدأ علم النفس يتكلم فعلا بوضوح عن الدين ، يصبح الدين مسألة مفتوحة ، لا قضية مقفلة . ومجرد كون امر يسمى دينياً لا يعني بالضرورة انه ذو قيمة لعالم النفس المدقق . فان الروح العلمي يتطلب ان نعيد فحص احب النتائج الينا على ضوء الاختبارات الواقعية . وكلما قل شعور الانسان بالامن في ايمانه الديني ، صعب عليه ان يفعل ذلك . بل قد يركض وراء علم النفس ليؤمن النقاط الضعيفة في ايمانه . أو قد يزيد ارتيابه اكثر من اللازم في علم النفس ، بسبب عدم امانه . قد يتوقف علماء النفس ويتساءلون : « ما هي الصفة الجوهرية في هذا الدين ؟ » وعندما يفعلون ذلك ، يكون اول تأكيد يقدمه علماء النفس المعاصرون اشبه بهذا : « ان الدين يمكن ان يكون صورة من

www.christianlib.com

العبودية الاصنامية للروح الانساني كما قد يكون سبيلاً لحرية الروح الانساني . »

الدين كضابط اجتماعي ضد الدين كطلب للحرية

لقد انتقد علماء النفس وعلماء الاجتماع الدين والمعاهد الدينية لممارستها ضبطاً دقيقاً للشخصية البشرية . تتبّع وليم سمنر في كتابه عن العادات الشعبية الطريقة التي بها تصبح العادات ممارسات شعبية ، تتناقل من جيل الى جيل ، ثم تحظى بشعور عاطفي وتحافظ عليها فرق وجماعات من الناس وتدافع عنها . وبعد حين تنسب اليها قوة ادبية . واخيراً تصبح لها حرمة دينية ، تتحكم في حياة الناس بدون « وزن او منطق . » وقد بين بول هـ. لندز الطرق التي يعمل بها الدين كوسيلة لضبط اجتماعي، ويحتفظ بقيم تواترت من الماضي يحتضنها اناس محافظون يخشون ان مصالحهم في خطر ، ولذلك يدعون لتجنب ضرورة التغيير الاجتماعي . ويعزز لستون بوب عميد مدرسة اللاهوت بجامعة ييل هذا الرأي بقوله : « لقد مالت الكنائس الى التحول من قوة فعالية للتغيير الاجتماعي ، الى مصادقة جامدة للتغير الذي قد حدث . » اما تالكوت بارسونز ، فهو اقل من بوب تشديداً

www.christianlib.com

في الناحية الخلقيـــة ، حين يقول بعطف انه من المتعذر على الكنيسة أو اية هيئة اخرى « ان تؤثر في حياة الناس ، بدون ان تحمل مسؤولية التأثير عليهم بكل ما تحتويه ، اي بدون ان تقع وتشتبك في الورطات الخلقية التي يقع فيها اصحاب القوة . »

ان اعظم مثل معين للنتـــائج السلبية للدين كقوة للكبت والضبط ، يظهر في بحث سيغموند فرويد عن الاخلاق الجنسية المتحضرة والاضطرابات العصبيـــة الحاضرة . وهو يستنكر الضوابط الدينية الغربية لسلوك الناس الجنسي ، تلك الضوابط القاسية ، غير الطبيعية ، التي من شأنها ان تؤدي بطاقـات الفرد الجنسية الى التلف والانحراف والامراض النفسية ويبين كيف ان قدرات الشباب الخلاقـــة تفشل وتتبطـل وتنحرف ، بسبب الاخلاق المزيفة ، حتى يعبروا عنها بعادات مشينة . وهو يفضح الضبط الاجتماعي الذي تفرضه بعض فئات رجال الدين والاخلاق الذين يعلّمون ان الهدف الوحيد الشرعي للسلوك الجنسي هو انجاب الاطفال .

ويذكر تالكوت بارسونز بصراحة اكثر الكنائس التي تدعي السيطرة على كل الامور المتعلقة بالدين والاخلاق فاضحاً ادخالها التوتر في المجتمع واعتداءها على حرية الفرد . وينطبق هذا بنوع

www.christianlib.com

اخص على السيطرة التي تمارسها الكنيسة على العـــائلة ، وعلى انجاب الاطفال ، وعلى اختيار شريك او شريكة الحياة .

انما لا يحتاج الشخص المتدين المفكر الفطن ان يفكر في هذا كأمر جديد . فان انبياء العهـد القديم قد حزنوا وتأسفوا على كيف ملأ الشعب ارضهم بالاصنـام ، وانحنوا وسجدوا لعمل ايديهم « ولما صنعته اصابعهم» (اشعياء ٢ :٨) . وقد وبخ بولس الرسول المسيحيين الاولين في غلاطيـة ، لرجوعهم مرة اخرى الى الاركان الضعيفة الفقيرة التي كانوا يريدون ان يستعبدوا لها مرة اخرى . وانبهم على حفظ ايام وشهور واوقات وسنين ، وخاف ان يكون تعبه فيهم قد ضاع عبثاً . واخبرهم انهم ليسوا بعد عبيداً بل ابناء الله ، وان فرض الله في المسيح من نحوهم هو ان يحررهم من العبودية العمياء للاوثان . ومضى يشجعهم قائلاً « فاثبتوا اذاً في الحريـــة التي قد حررنا المسيح بها ولا ترتبكوا ايضاً بنير عبودية » (غلاطية ٥ :١) .

فالتعليقات التي يعلق بها علم النفس الاجتماعي على الدين ، تعليقات نبوية بمعنى ما . لقد ذكرتنا ان الدين يجب ان لا يكون مجرد صورة للسيطرة الاجتماعية بل قوة حيوية للتغيير الاجتماعي . لقـــد اظهر اولن بنكلي بشكل قاطع مبني على ادلة تاريخية ان

www.christianlib.com

« الدين عامل مهم في التغيير الاجتماعي ... فلقد انتج شخصيات نبويـــة ، من رجال ونساء ، ذوي ادراك خلقي وارادة خيرة ، اثروا على عادات الناس وغيروها . »

عندما يهزأ بعض علماء النفس المعاصرين بالدين ، كصورة من صور العصودية ، نجيبهم بمحاولة اعـــادة الدين الى صورته الحقيقية كمسعى للحرية ، للنمو في صورة الله ومثاله . ومؤخراً فقط بدأ علماء النفس يقدرون الدور الذي يلعبه الدين ، كقوة دافعة للحرية ، وكسبيل للعصيان والتمرد ، وانشقاق زقاق الخمر العتيقة للسيطرة الاجتماعية. فالطفل الناشىء مثلا قد يعصي ويتمرد على الضحالة الروحية ، وعدم الاكتراث الديني ، وعلى عـــدم الاخلاص والامانة ، وعلى مواقف الوالدين المتحكمة ، تماماً كما يتمرد طفل آخر على والد تقي يهدده او يعاقبه بالدين ، في محاولته ان يسيطر عليه . وكثيراً مـــا يبدو جمود الشخصية في المواقف الوالدية الصادرة عن ملحد عسكري ، كما تبدو في سيطرة التحكم الصادرة عن شخص تقي متدين .

الدين كهروب من الحرية ضد الدين كمجابهة للمسؤولية

يبين اريك فروم في مؤلفـاته المثيرة ، ان الدين قد يكون

www.christianlib.com

مهرباً من التزامات حرية روح الانسان المسؤولة . وان عبادة الدولة ، او النجاح المادي ، او الهوية المهنية ، قد تصبح من جميع الوجهات العملية هروباً مخيفاً من ان يطالب الفرد بحريته ومن ان يكون شخصاً مستقلاً في نفسه . يقول فروم انه منذ البداءة و « الوجود الانساني والحرية متلازمان غير منفصلين . فالانسان يجابه بالاختيار بين مناهج مختلفة للعمل . » انه ليطلب من الانسان ان يكون جزءاً من الطبيعة وفي الوقت نفسه ان يتجاوز الطبيعة . انه يحاول دائماً ان يُخضع الطبيعة ، ويتحرر منها . هذه عملية طويلة الامد ، وتحقيقها يدفع بالانسان الى عزلة وعدم امان متزايدين ، وهو يواجه « شكاً متزايداً عن دوره في الكون ، وعن معنى الحياة ؛ ويصحب ذلك كله شعور متزايد بضعف الانسان وعجزه وعدم اهميته كفرد . » لقد تحرر من الطبيعة ، لكنه لا يجد دليلاً مضموناً يدله على هدف هذه الحرية. يقول فروم ، ان عدم التناسب بين مقدار الحرية السلبية ، والادراك الايجابي لحرية تؤدي الى تحقيق امكانية النفس « قاد الى هروب مفزع من الحرية الى روابط جديدة ، او على الاقل الى عدم اكتراث تام . »

وفي رأي فروم ان الدين يصبح عند هذه النقطة موافقاً لحالة

www.christianlib.com

الانسان تماماً . فهو يقول ، ان الاصلاح كان قوة مندفعة من الانسان للحرية البشرية والاستقلال الذاتي . الا انه يشعر مع ذلك بان الاصلاح انتج نوعاً آخر من العبودية ، بتعليمه عن انحطاط الانسان ، ذلك التعليم الذي بمقتضاه تجسم وكبر شعور الانسان بوحدته وعدم أهميته ، فصار مضطراً مرة اخرى ان يطلب الامن والضمان في سلطة خارجية . مع ذلك فان حيوية الدين هي منبع طلب الانسان للحرية ، وهي دائماً تتخطى نظم السلطة القائمة ، التي يلجأ اليها الناس القلقون وغير المستقرين ، طلباً للحرية .

الدين كسلطة تتطلب الرضوخ ضد الدين كاثبات للاستقلال الذاتي للنفس

هذا يثير قضية من القضايا التي كثيراً ما نجد فيها علم النفس المعاصر يتحدى الدين . هل ساعد الدين على اضعاف الشخصية البشرية بطلبه الرضوخ لسلطة ؟ او هل يمكن ان يكون الدين اثباتاً للاستقلال الذاتي للنفس امام الله ؟ يقول اريك فروم ، ونقتبسه مرة اخرى ، ان الانسان « عندما يصبح اكثر استقلالاً ، واكثر اعتماداً على نفسه ، واكثر انتقاداً يصبح في نفس الوقت

www.christianlib.com

اكثر عزلة ، ووحـــدة وخوفاً . » فاذ يواجه نفسه كـ « ذات منفصلة مستقلة تماماً يختبر حالة لا تطاق من العجز والوحدة . » ويقول فروم ان الانسان يستطيع ان يتخذ سبيلاً من اثنين متاحين له . فهو يستطيع ان « يلائم نفسه تلقائياً مع العالم بالمحبة والعمل » او « ان يرتد ... ويسلم حريته ... ويحاول ان يتغلب على وحدته بنزع الثغرة التي نشأت بين نفسه الفردية وبين العالم . » وفي هـــذه الحالة قد يختار ، كما قلنا من قبل ، نوعاً من الدين يفرض سلطته عليه ، كاحدى سبل التخلص من حريته الحقيقية .

ما هو الدين المتسلط في رأي فروم ؟ وكيف يختلف عن طبيعة الاستقلال الذاتي لحرية الانسان ؟ ان الدين المتسلط هو دين يملك بالقوة فينفي المحبة والحرية والعدل وكرامة الشخصية البشرية . والميزة الاساسية لهذا الدين الطاعة والخضوع ، والخطية الاساسية العصيان والتمرد . ان الانسان الذي ينتمي لدين متسلط هو شخص لا يعتد به ، ولا ذاتيـــة له ، وهو مدعو لان يحتقر نفسه .

هناك ردان على موقف اريك فروم ، جديران بالالتفات هنا . الاول ، ان فروم قد اعاد تنشيط الصفة الانسانية للديانة النبوية ، كما حصل في عصر الاستنارة . وقد كان عصر تراثنـــا الروحي

www.christianlib.com

هـذا ، رد فعل من نواحي كثيرة للكلفينية المتطرفة ، التي كانت تشدد غالبـاً على سيطرة الله وسلطانه المطلق ، الى درجة اهمال قيمة الانسان كمجبول على صورة الله . لقد انشأ فلاسفة الاستنارة برد فعل مضاد ، وطوروا علم لاهوت يتخذ تعليماً حيوياً عن الانسان حافزه المحرك . ولقد صار علم اللاهوت يدور حول علم الانسان ويتحدى التسلط في تعليم الكلفينية كما يتحداه فروم . وتقررت حرية الانسان واستقلاله ، كما اكدهما فروم . ووضع تركيب ايجابي جديد للتوجيه الديني الانساني ، على نحو ما يفعل فروم .

الامر الثـاني هو ان بويسن يتحدى تفسير فروم لاهداف الدين كـ « تحرير الشخص من كل سلطة ، ولادراك ان لا شيء له يعتمد عليه سوى نفسه . » ويريد بويسن ان يقول ان السلطة ليست شراً في ذاتها ولا من ذاتها ، ولا الاستقلال خيراً في حد ذاته . انما هدف الحياة المتدينة هو بالاولى نقل السلطة الخارجية الى شعور داخلي بالمسؤولية ، عن طريق محبة الله ، الذي يدين له الانسان بولاء تام لا تحفظ فيه . ويبين سميلي بلانتون في هـذه النقطة بالذات ، ان فروم « لا يبدو انه يفهم التأثير الذي تركته الفكرة المسيحية عن إله محب على الثقافة المسيحية ، وتأثير هـذا

www.christianlib.com

الإله المحب في كبح جماح اعتداءاتنا وتكييفها . » ويلاحظ ج. ج. هونغمان بمقدرة ، أن فروم لا يقـدر تقديراً كافياً ان الاستقلال والحرية هما قيمتان تتأثران بالبيئة ، وتعيشان جنباً الى جنب مع المطاليب الاخرى في تلك البيئـة . ويكون الاهتمام الديني على أشده عندما يتحتم علينا ان نختار بين هـذه المطاليب المختلفة ، وهذا الاختيار هو اختيار ديني . »

تجابه الكلفينية الكلاسيكية هـذا الاختيار فعلاً ، فتؤكد ان الانسان مستعبد دائماً لسلطة ارضية معينة ، الى ان يتحرر من كل هذه الاصنام ، لعبـادة الإله السرمدي كسيد مطلق ، ويتحرر بذلك من كل ولاء لما هو أقل . فمثلاً كل انحراف في علاقـة الانسان بابيه الارضي ، يمكن ايضاحه باجلى بيان في سمو ولائه لابيه السماوي . فهو عندئذ ، وعندئذ فقط ، يستطيع فعلاً ان « لا يدعو أحداً ابا » (متى ٢٣ : ٩) كما أمر يسوع . ان اتخاذ الانسان قراراً بين « ان يصير حراً » و « ان يتعلم ان يكون مسؤولاً » يجعله امام ازمة خلقية حقيقية ، كما يقول رولو ماي ومورر ، فيبين كلاهما ان عدداً كبيراً من الناس يصيبهم الشعور بالذنب والقلق ، لانهم اصبحوا مستقلين ذاتياً ، دون ان يصبحوا مسؤولين . »

www.christianlib.com

وقد افادنا علماء نفس آخرون بتوضيحهم ميزات لنوع الدين الذي يرتبط عادة بالسلطة المطلقة التي تتطلب الرضوخ بدون مناقضة . وقد ميزوا في الواقع بين السلطة اللاعقلية ، والسلطة العقلية ، بين الدين المهتم بالمظاهر الخارجية والشكليات والدين الذي يشدد على الادراك الثاقب الداخلي الشخصي . النوع الاول من الدين ، يساوم في سبيل الحصول على نتائج عملية ، الى درجة اهمال القضايا الروحية الاعمق . وكما يصفه ت. و. ادورنو ومساعدوه ، انه دين ينهمك في « عادات تقليدية، وتحريمات، ومظاهر اجتماعية ، ويحصر اهتمامه وخضوعه فيما يقوله الناس . »

اما علماء النفس المعاصرون فلا يقفون عند هذه الناحية السلبية للحق . فمع انهم وجهوا التفاتنا الى الكيفية التي بها يمكن ان يكون الدين خارجياً ، متسلطاً ومسيطراً واقليمياً ، الا انهم مضوا يقولون ان الدين يمكن ان يكون تأكيداً شافياً للاستقلال الذاتي للروح الانسانية . ومثل هذا الدين سيكون مخالفاً للارشاد الهادف الى التوافق بين الانسان ومحيطه ويهدف الى ايجاد تفرد خلاق للخدمة التي يقدمها كل انسان للحياة . وسيكون اختبارياً

www.christianlib.com

وهادفاً الى فهم متزايد لطبيعة الانسان ، وللقوانين الروحية التي تحكم وجوده .

وتوجه الطعنة الرئيسية في حجة فروم ، وماورر ، وماي ، وادورنو ، ضد انواع الدين التي تحسب ان السبت اهم من الانسان الذي لاجله جعل السبت . وهم يرفضون انواع الدين هذه التي تنظر الى الناس كوسائل لسلطة كنسية ، بدلا من كونهم غاية لمحبة الله وعدالته . ويحذرنا فروم وعدد من علماء النفس الآخرين المعاصرين ، دائماً من تجربة صنع صنم من تفسيراتنا الخاصة عن الله ، وهم يخاطرون بذلك بوضعهم في صف الملحدين . ويقول فروم ايضاً ان هذا قد يؤدي الى « صورة جديدة من عبادة الاوثان . »

في هذا المعنى ينهض علم النفس الحديث موضوعاً حيوياً لانبياء العهد القديم وللرسول بولس . فقد كتب بولس الى اهل رومية محذراً اياهم من عدم المسؤولية ، ومن تدمير انفسهم بتركها تحت تحكم رغائب انانية مركزة في الذات. وهاله التفكير في ان المسيحيين في رومية يفضلون البقاء في الخطية « لكي تكثر النعمة . » وقد حدثهم عن الذات الجديدة التي نالوها في المسيح ، كباكورة لميلاد الحياة الجديدة ، غرس الرب ، وعن الحرية

www.christianlib.com

الجديدة من سلطان الموت عن طريق عهد المسيح . وقد وبخ من الناحية الاخرى ، الغلاطيين لارتدادهم الى نير العبودية الذي يفرضه النظام اليهودي الطقسي المتحكم . ويصور كاتب الرسالة الى العبرانيين حياة الايمان مثل « خروج » من الحصون الآمنة ، حصون الانظمة الطقسية الناقصة ، وطلب ، في حرية « مـا لا يرى » ، للمدينة التي صانعهـا وبارئها الله . ويلخص كاتب العبرانيين هذا في رجل الايمان ، ابرهيم ، الذي « لما دعي ... خرج وهو لا يعلم الى اين يأتي . » والمبدأ البروتستانتي للايمان المسيحي كان لبه دائماً وابداً حرية الروح الانساني ، الحرية التي لا يمكن نزعها . وقد ظل يؤكد باستمرار استقلال ذات الانسان كنفس تامة امام الله . وبهذا المعنى ، يتفق المسيحي البروتستانتي مع علماء النفس ، وهو يـدفع كل شيء يحجب روح الانسان وذاته المستقلة عن النور الاكمل لحق الاله الازلي السرمدي .

www.christianlib.com

الفصل الرابع

الدين : هل هو «هوى صبياني» أم طريق للبلوغ ؟

ربما كان من اعظم الخدمات التي قدمها علم النفس المعاصر لفهمنا الدين ، في موضوع الدراسات المسهبة لنمو الشخصية . فقد اعاننا عالم النفس ، لنرى ان الدين اشبه بنور الشمس الذي يسطع كل يوم ، ويبدو مختلفاً في كل مرحلة من مراحل نمونا . لقد اعاننا علماء النفس ، حتى نكون أكثر تحديداً في تقييمنا الاختبار الديني ، باعطائنا ادراكاً افضل لمراحل سير الحياة من الولادة الى البلوغ . وقد اثاروا أمر درجة « الهوى الصبياني » او درجة النضوج ، في أي اختبار ديني. لذلك يمكن ذكر تأكيد آخر قدمه علم النفس الحديث للدين فيما يلي : « ان الدين قد يكون « ولدنة » ، لكن الدين قد يكون طريقاً للبلوغ . »

www.christianlib.com

الدين كولدنة او عدم نضوج . لقد قـدم اناس امثال سورين كيركغارد وهوراس بوشنل اوصافاً شعرية ونبوية للنمو الديني للشخصية . ان سورين كيركغارد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) الذي كان يحسب نفسه احياناً عالماً من علماء النفس ، كتب مؤلفاً نفسياً عميقاً عنوانه : « المرض الى الموت » ، وفيه وصف جهاد النفس حين يطلب الانسان « ان يصبح ذاتاً » امام الله ، وفيه ايضاً وصف يأسه لعدم محاولته ان يصبح الذات التي قصد الله ان يكونها ، ويأسه لمحاولته ان يكون هذه الذات وفشله في ذلك، واليأس لنواله تلك الحرية والذاتيـة ، ولكن لا يعرف كيف يتحمل المسؤولية الملازمة لها . وقد وصف كيركغارد عـدم النضوج الروحي « للرجل الذوقي » المعروف بالتقدير النفساني للجمال ، والذي لم يواجه مشكلة الوقت ، والذي ربط بشهوات اضطرته ان يتصرف بغير حرية تأمل ، والذي كان دائماً يطلب شيئاً جديداً ينقذه من ضجر . وقد ميز كيركغارد المراهقـة الروحية ـ بغض النظر عن السن ـ للشخص المتمسك بالشريعة والذي يلح على ان يكون ثمة قانون لكل شيء ، ويسعى ابـداً لاكتشاف سلطة شرعية مسيطرة تملي عليـه القرارات وتعفيه من اتخاذها هو بنفسه ، وتحرره من قلق الاختيار الضيق . وقد نفذ

www.christianlib.com

كيركغارد بثاقب بصره الى الشخصية الناضجة ، التي تتميز « بوثبة الايمان » الذي فيه تتحول الشريعة الى نعمة ، ويتغير الفكر المشوه عن الله كمخرب ، الى علاقة بالله كمحبة فادية ، او محبة غير مشروطة .

اما هوراس بوشنل (١٨٠٢ ـ ١٨٧٦) ، فمع انه كان يعتنق المبدأ الكلفيني عن فساد الطبيعة البشرية، الا انه شعر بأن عمل الله الفدائي يجب ان يبدأ ابكر ما أمكن ، وان الاطفال يجب ان « ينموا في المحبة مع كل صلاح ، وان لا يتذكروا وقتاً معيناً فيه بدأوا يعتنقون المبدأ المسيحي . » وبناء على هذا الاعتقاد بدأ بوشنل يطبق مقياساً نفسياً خاصاً على التربية الدينية للاطفال . وعن طريق هذا الشق اللاهوتي الذي فتحه بوشنل ، دخلت النتائج التي توصل اليها علماء النفس فيما بعد . ونتيجة لذلك اصبح تقدير القيمة الخلقية من حيث الولدنة او النضوج جزءاً مفضلاً من النماذج القياسية الخلقية في عصرنا الحاضر ، بشكل لا مثيل له في التاريخ الديني في العصور السابقة .

لقد انشأ سيغموند فرويد تطور نظرية من اكثر النظريات اقتباساً ، خاصة بنمو الانسان البشري . ففي كتابه الذي عنوانه « مستقبل وهم » يصف الدين كاستمرار لحاجة الطفل الى

www.christianlib.com

الحماية ، في مواجهة الشعور بالعجز . فيقول انه : « عندما ينمو الطفل ويجد انه مقدر له ان يبقى طفلاً الى الأبد، وانه لا يستطيع ان يعيش بدون حماية ضد القوات الجبارة المجهولة ، يلبس هـذه القوات شخصية الاب ، ويخلق لنفسه الآلهة التي يخاف منها ، والتي يحاول ان يسترضيها ، والتي مع ذلك يعهـد اليها بمهمة حمايته . » وبهذا فان تفسير الدين بشوق الفرد لابيه وكردّ فعل الطفل في عجزه ، يبين المظاهر المميزة لرد فعل البالغ في عجزه ـ أي تكوين الدين . ثم يمضي فرويد فيؤنبنا على تقديم الطفل وتعريفه الى « تعاليم الدين في الوقت الذي لا يلتذ فيه بها ، ولا يستطيع ان يفهم مضامينها . »

اما ج. س. فلوغل ـ وهو محلل نفساني آخر واحدث ـ فيقدم رأياً أقل تشديداً من الناحية الخلقية ، واكثر ادراكاً لتقييم الدين، لا سيما الدين المسيحي ، إذ يقارن بين المسيحية والتحليل النفسي، فيقول ان : (١) « كليهما يهدفان الى تقليل الشعور بالذنب » (٢) « وفي كليهما ميل للنظر الى الألم ، باعتباره عقاباً للتعدي على أمر سلطة شديدة كالوالدين او الله (٣) وفي كليهما « يستعاض عن هذه السلطة الشديدة بسلطة لطيفة ، رقيقة ، شافية ، بفكرة حصول الفرد اخيراً على استقلال ذاتي خلقي . » ويمضي فيقول

www.christianlib.com

« ان المسيحية هي اساسياً ديانة ابن واخ ، لا ديانة اب . » أي انها مؤسسة على علاقات تعاونية بين النـــاس ، اكثر منها على عبودية صبيانية، يفرضها اشخاص اقوياء على اشخاص ضعفاء .

ويقدم غوردون و. البورت ، استاذ علم النفس في جامعـــة هارفارد ، وهو عالم نفساني آخر واحدث ، ملاحظـــات اكثر تحديداً من ملاحظات فلوغل ، فيقول ان الدين « ليس مجرد اعتماد على الغير ، او تكرار حيـــاة النسق العائلي ، او الشكل الثقافي ... فكل صورة من هـذه هي في ذاتها جزئية وناقصة . » ثم يمضي فيبين مكامن التشديدات الجزئية والناقصة في « الابحاث النفسية للدين . » وهو يلاحظ بفكرة صائبـــة ان أحد اسباب ذلك هو ان نمو الشخصية « صار يدرس عن السنوات التي تسبق البلوغ ، اكثر كثيراً جداً منه عن سني المراهقة والبلوغ . » ونتيجة لذلك صار عندنا علماء نفس نشروا فكرة محرفـــة عن الدين ، في كونهم يقدمون الدين كولدنة صبيانية ، ويغالون في رأينا حاليـــاً ، في التشديد على تلك العوامل التي تؤثر في دين الطفولة : « العائلة ، الاعتماد ، السلطة ، التمني ، والممارسات السحرية . » ويؤكد البورت بحكمة أن عملية صيرورة الشخص ذاتها تظل مدى الحياة ، ولا يمكن تفسيرها على أساس ما يحدث

www.christianlib.com

قبل البلوغ . ويبين أن تكوين فكرة دينية كافيـــة عن الكون والحياة غير ميسور للاطفال ، وان الانسان لا يشعر « أنه متصل بصورة ذات معنى بالكائن الكلي ... قبل البلوغ . » ثم يكتشف البالغ حاجته الى الايمان والمحبة والى نظرة دينية شاملة الى الكون تصله بالوجود ككل . ويبين ان الانسان لا يستطيع ان يحيا بدون « فروضه النهائية الخاصة » وهذه بالنسبة له هي الاتجاه الامامي الذي ييسر له ان يلائم نفسه قصـــداً في كل مرحلة من مراحل صيرورته ، مع الكائن الكلي . ويقول البورت في كتاب آخر ان الدين قد يكون رجوعاً الى الطفولة ، لكنه في اغلب الاحيان ، العامل المركزي المنظم في الحياة البشرية ، يجسم اوسع مـــدى لمقاصد الانسان ، وهو قادر ان يمنح توحيـــداً بيناً للشخصية ، موجداً معنى وسلاماً في مجابهة مآسي الحياة واضطراباتها .

وقد ركز علماء النفس انتباهاً متزايداً في الايام الاخيرة على سني البلوغ في الحيـــاة . واذ يتزايد الادراك بالمشاكل الرئيسية المعقدة للبلوغ ويصبح الناس أكثر وعياً لهـــا ، من الطريف ان نلاحظ تحول تقـــدير علم النفس للدين ، من رفض سيغموند فرويد القاتم ، الى تأكيدات البورت الاكثر ايجابية . وسنرى في فصل تال ، عن الدين كمعنى جوهري للحياة ، الحاجـــة الملحة

www.christianlib.com

لدراسات نفسية دقيقة عن البلوغ . لقـــد اصبح البلوغ بصورة متزايدة طوراً فيه يشعر الناس بان الحياة عديمة المعنى. ولعدم وجود هدف ، وللشعور بعدم قيمـــة سني البلوغ ، يرتد كثيرون من البالغين الى الاعوام الابكر ، والى كيفية اقل نضوجاً في مواجهة الحياة . وهذا يصدق بنوع اخص في ناحية دينهم . وفي السنوات الاولى من العشرينات ، سنوات الاتكـــال على النفس ، تراهم يهملون انماء ادراكهم الديني ، ومواردهم الروحية . وتهدف تصميمات علم النفس الحديث الى ابعاد الانسان عن الطفولة ، لا الى تقدير معاني عيشة البلوغ واهدافها تقديراً صريحاً . ونتيجة لهذا النقص نجد الشيء الكثير من تقييم الدين يقف عنـــد حد السلبيات ، كاتهام الدين بالولدنة والصبيانيـــة ، وكأمر يجب أن يتركه الفرد حين يدرك النضج والبلوغ .

الدين كطريق للبلوغ . عندمـــا نواجه انحرافات الدين ، التي يتميز بها الاشخاص غير الناضجين ، والعصبيون والمصابون بامراض عقلية ، نرى انفسنا مضطرين الى الاستنتاج ان الدين قد يكون صبيانياً جداً . انما علينا مع ذلك ان نجمع كل الادلة والمعلومات ونقول ان الدين قد يكون طريقاً للبلوغ والنضوج . يقول فرويد وهو يدرس تاريخ احـد المرضى ، ان الدين يجب

www.christianlib.com

عادة « ان يقلل من اهمية العائلة الاولى » وان « يقدم للمحاولات الغريزية للطفل الناشىء مرفأ اميناً » كما وانه « يمكن البـالغ من التقرب بالمحبة الى العائلة البشرية الاكبر . »

عرّف هاري ستاك سوليفان النضوج بالقدرة على « تكوين روابط حب مع شخص آخر ، فيها يكون الشخص الآخر مهماً كالشخص نفسه ، او يكاد يكون كذلك » . ويلاحظ غوردن البورت ، ونقتبسه مرة اخرى ، ان الشخص البـالغ يظل ينمي ويعمق ويوسع اهتماماته الى الشيخوخة ، وان العاطفـة الدينية الناضجة تتميز باتساع التودد والحب ، وشعور الانسان بنقص حبه لله ومعرفته ، « وتبدو انها غير قانعـة ابداً ، اذ انها تعالج أموراً رئيسية في الوجود كله » . ونشير الى عالم نفس آخر ، وهو ليون ج. سول ، وهو يقول « ان الدين ... يمثل في جوهره ... صراع الانسان بين الدوافع الحيوانية والقوات الاجتماعية الرادعة، قوات السلطة الوالدية . وهذا كله جزء من صراع البشريـة في سبيل النمو والتعايش المدني معـاً ـ وهو صراع قديم العهد ، ينعكس في كل فكر بشري ومسعى انساني تقريباً ، من الاحلام الى التنظيم العظيم . »

اذاً الدين من وجهة نظر علم النفس يمكن ان يكون سبيلاً

www.christianlib.com

للنضوج والبلوغ ، أي مهيئاً للانسان طاقة بها يحب قريبه كنفسه. وهـــذا لا يعني بالضرورة ان الدين هو حتماً سبيل للنضوج والبلوغ . ولا يعني ان الدين مجرد وسيلة للنضوج والبلوغ . كما ان فكرة النضوج والبلوغ لا تعبر عن كل ما على علم النفس ان يقوله عن الدين . انما مطاليب البلوغ تدعو الى كل ما يجود به الايمان الناضج من موارد .

نحن مدينون بنوع خاص الى س. ج. يونغ لادراكه بثاقب بصره الدور الذي يلعبه الدين في البلوغ . وكثيراً مـــا اقتبست عبارته المشهورة ، بأنه ما رأى قط مريضاً بعـــد سن الخامسة والثلاثين ، لا يقاسي نقصاً أو فشلاً في الايمان . ولكن قلما تبين أن يونغ يشدد على الايمان الديني كجزء طبيعي لحيـــاة البالغ السليمة ، الحياة التي له « بعد سن الخامسة والثلاثين . » والدين ليس حتماً « ارتداداً الى الطفولة ، لكنه يمكن ان يكون مجابهة جدية ناضجة لحقيقة حياة البلوغ . فضلاً عن ذلك فان التشديد الرئيسي في تعاليم يونغ انما يهتم باطلاق اعمق طـــاقات الفرد الخلاقة ، كعضو في الجنس البشري . وتأتي هذه الانطلاقة من اكتشاف الفرد وظيفته ورسالته في الحياة ، ودعوته الخاصة ، وهويته الاساسية . ويتركز الاهتمام الديني والايمـــان الروحي

www.christianlib.com

للشخص الناضج في الاكتشاف والصياغة ، والاعراب ، والتعبير الاجتماعي لهذه الدعوة ، في رأي يونغ .

ان المسيحي المهتم ، الذي يفحص العهد الجديد جدياً يسمع هـذه الاقوال التي يقولها علم النفس الحديث عن الدين ، والصبيانية ، والبلوغ ، وعنده شعور غريب بأنه يألفها . فلقد سمع بها من قبل . فالعهد الجديد يحدثنا عن النمو الى البلوغ في المسيح . ويلخص الاصحاح الثالث عشر من رسالة كورنثوس الاولى هذا البلوغ في الموهبة الاسمى، موهبة المحبة المسيحية . وهي تدعو الى ترك ما للطفل ، والى التواضع في ضوء نقص نبواتنا ، وفهمنا ، وعلمنا ، وايماننا . والنمو في المحبـة حسب ما جاء في افسس ٤ : ١٤ ـ ١٦ يتضمن اتزاناً في الشخصيـة ، ورفضاً للخداع والغش ، ونطقاً بالحق في المحبـة ، وتعاوناً منسجماً في الشركة مع المؤمنين، جسد المسيح الذي هو رأسه . وتبين الرسالة الى العبرانيين الفرق الواضح بين صبيانية « تحتاج الى اللبن » هي صبيانيـة المسيحيين غير الناضجين ، ونضوج البالغين الذين يتناولون الطعام القوي « الذين بسبب التمرن قـد صارت لهم الحواس مدربة على التمييز بين الخير والشر » (عبرانيين ٥ : ١٢ ـ ١٤) .

www.christianlib.com

ومع ان عالم النفس في وقتنا الحاضر لم يقدم للمسيحي مقياس النضوج الذي به يقدّر دينه ، فانه قدم لنا دراسات اختبارية عن نمو الشخصية ، ومكننا ان نفهم ما هو البلوغ بطريقة اكثر تحديداً وتخصيصاً . ان الدراسات في النمو التي قام بها سيغموند فرويد ، وهاري ستاك سوليفان ، وارنولد غزال ، وملتون ج. سن وغيرهم قد جعلتنا اكثر دقة في تقييم مراحل النضوج الروحي في ضوء قدرة الانسان على ان يحب ويلائم نفسه مع الآخرين ، وعلى ان يحيا في مزيد من « التوجيه الخلاق » للحياة .

علاوة على ذلك ، ان علماء النفس إذ يواجهون ضرورة المحاولة لتقدير الشخصية ككل ، بدلاً من مجرد وصف هذه الناحية او تلك ، يعالجون الامور المعنوية غير العلمية المجردة كمعنى النضوج ذاته مثلاً . وبهذا ، كما يذكر لورنس ي. كول ، يكشف العالم النفساني عن قيمه هو ويعكس وجهة نظره الخلقية الخاصة . فيخرج عن دائرة الامور النسبية الثانوية وعن وقوفه على الحياد في حقل القيم الروحية ويصبح مشتركاً في النضال الخلقي للجنس البشري . والا فيبقى مجرد ميكانيكي ، يجب ان تفسر نتائج عمله الميكانيكي بواسطة آخرين قادرين على البحث في سبيل فهم شامل للحياة البشرية .

www.christianlib.com

الفصل الخامس

الدين : هل هو مرض أم سبيل الى الصحة ؟

لا تهتم كل فروع علم النفس بمشكلة علاج المرضى. ومع ذلك فبازدياد هذا الاهتمام في هـذا العصر ، وسع علماء النفس دائرة اهتمامهم وصاروا يعملون على انماء فهم اكثر ادراكاً وشمولاً للحياة البشرية . وأشد من اثار هـذا الميل هم علماء النفس من الاطباء او ممتهني طب الامراض العصبية والعقليـة . فالامراض العقلية هي احدى الامراض الرئيسية للبشر في يومنا الحاضر . وعلماء النفس واطباء الامراض العقليـة يطبقون نتائج ابحاثهم جدياً على مشاكل المرضى عقلياً . انما هذا البحث لا يلقى حتى اليوم الاّ تعضيداً ضئيلاً من الاعتمادات الماليـة . وقد تأثر بعض رجال الابحاث ، في اثناء عملهم، أعمق تأثر بالكيفية التي بها

www.christianlib.com

يساعد الدين في شفاء الامراض العقلية ، وكيف يساهم في علاج هذه الاضطرابات . ونتيجة لذلك ، بعـــد ان اصبح موضوع الدين كله موضوعاً مفتوحاً ، لا نتيجة مقررة مختومة ، شرع علماء النفس واطباء الامراض العقليـة يصوغون فرضاً آخر عن الدين فقالوا : « ان الدين قـــد يكون جزءاً من مرض عقلي في ذاته ، وبحد ذاته ، لكن يمكن ان يكون سبيلاً للصحة . »

الدين مرض عقلي او اعتلال عصبي للبشر . كان جون ب. وطسون من اوائل علماء النفس في المذهب السلوكي ، ومن أشدهم عجيجاً وصياحاً . وقد شدد على ان علم النفس هو علم دقيق للسلوك البشري . وكان من علماء النفس الاكاديميين الذين حاولوا ان يقلدوا العلوم الطبيعية ووسائل المختبرات في المقاييس والضبط والحساب . وكان واحداً من اولئك الذين حضوا على ان يصبح علم النفس علماً يهتم « بالميكانيكية ، والتفاعل ، والغرائز ، ولكن لا بالظواهر البشرية المتعلقة بالنـــاس بشكل أخص مثل : الحب ، العقل ، الضمير ، القيم . » وكان أحد علماء النفس الذين كانوا يهتمون بالمشاكل الطفيفة اكثر منهم بابتكار وسائل جديدة لدرس مشاكل الانسان الخطيرة . وكان وطسون يعتقد اعتقاداً جازماً ان السلوك البشري يمكن ضبطه

www.christianlib.com

والتنبؤ عنه بدقـــة تامة . لذلك كان يعتبر الدين امراً من امور الماضي ، وقد عفّاه الزمن . وكان يظن ان الدين قد نشأ من كسل البشرية العام ، وهو وهم وروايات خيالية فرضها الكهنة على الشعب الجاهل . وقد رفض علماء النفس المعاصرون ، من اتباع المدرسة السلوكية ، ملاحظاته الأشد جرأة ووقاحة . الا ان هـــذا الأمل المنشود بأن السلوك يمكن التنبؤ عنه بدقة متناهية ويمكن ضبطه بصورة نهائية ، لا يزال الحلم المذهّب لبعض علماء النفس . يكفي ان نقول هنـــا ان نظرة وطسون العامة هي ان الدين من وسائل الانحدار والتدهور للجنس البشري ، يجب القضاء عليه كاوزّ بري او حلزون ضار ، بل يجب التغلب عليه كمرض خبيث .

هناك رأي اكثر دقة وأشد عناية عن الدين كاعتلال عصبي ، نجده في البحث الذي قدمه سيغموند فرويد وعنوانه : « اعمال فرضيـة وممارسات دينية » . ويلاحظ فرويد الطبيعـة الطقسية للسلوك العصبي . فغسل الايدي والممارسات الفرضية التي يقوم بها المرضى عصبياً تتسم بالطبيعة الجـــامدة التي تلازم الفرائض الدينيـــة . وظن فرويد ان هذه الممارسات العصبية هي تحريف مبكي مضحك للدين الشخصي . فبدلاً من الاعمال المتفق عليها

www.christianlib.com

اجماعياً ، اعمال الكثيرين في علاقاتهم بعضهم ببعض ، كانت تلك الاعمال اختبارات اناس مرضى كانوا يعيشون في عزلة ، ووحدة . وخلص فرويد من هذا البحث ، الى ان الدين يمكن « ان يقارن بشخص مرتبك عصبياً . . » فقال « ان المؤمن الحقيقي يحفظ الى درجة كبيرة من اخطار بعض الاصابات العصبية» ويحظى بهذا الحفظ «بقبوله مرض الدين العام الشامل.» ومضى فرويد يقول ان الشخص اذ يقبل هذا المرض العام الشامل « ينجو من تكوين مرض شخصي . » لذلك فكر في المعتقدات الدينية كأنها « بقايا حالات عصبية » يمكن ان تستبدل مع مضي الزمن « بنتائج الجهود المنطقية المعقولة كما في العلاج التحليلي للحالات العصبية . » واقترح فرويد من الناحية الاخرى انه اذا لقي العلاج بواسطة التحليل النفسي قبولاً حسناً عند العامة فسيصبح جواباً لهذا المرض المنتشر بشكل عام . ومع ذلك فان بعضاً من أخص تلاميذ فرويد ومن أشد نقاده نفاذاً ، ينظرون الى هذا لا كنقض او ابطال للدين ، بل كمحاولة لاشعورية من جانب فرويد لوضع علاج التحليل النفسي كمنافس للدين .

ويجب ان نوجه هنا ثلاث ملاحظات على انتقادات فرويد

www.christianlib.com

الصارمة للدين . الاولى ، كما ذكرنا من قبل ، هي ان علم النفس علم حديث . حتى المشاهدات العرضية الطارئة عن تاريخ العلم والدين اظهرت ان أي علم حديث يتميز عادة بمنافسته للدين . فبطريقة حقيقية استولت العلوم الطبيعية على حقل تلو الآخر من حقول الدين دافعة الدين الى تحليل سبب وجوده تحليلاً أعمق . فعلوم الكون ــ الفلك ، والطبيعيات (الفيزياء) ، والجغرافيا ، وغيرها ــ كانت في الأصل من مناطق التفسير الديني . بل الطب نفسه كان عملاً يمارسه الكهنة . وكان التعليم من حقوق الكنيسة وامتيازاتها الخاصة . بل صيانة الصحة والنظافة كانت تحت سلطة القوانين والشرائع الطقسية من طهارة ونجاسة ، وما يؤكل وما لا يؤكل . وفي تحويل الامور الى اغراض دنيوية سقطت منطقة بعد اخرى من هذه المناطق ، فاستولى عليها التدريب العلمي وفرض سلطانه عليها . وفي سبيل تحقيق ذلك ، كان على كل علم حديث ان يجوز مرحلة رفض الدين . وكان على الدين ان يجوز في مرحلة « تهديد » من العلم الحديث . وموقف الرفض هذا الذي يقفه العلم الحديث من الدين ، وشعور الدين بالتهديد يتقاربان معاً الى مرحلة جديدة تتميز بالطمأنينة والتوافق بعد ان يوطد العلم الحديث استقلاله . ويكون الخطر عندئذ ان نلقي

www.christianlib.com

بالحكم والتمييز في مهب الريح ، ونجعل العلم والدين امراً واحداً بالتمام لا فارق بينهما، مع ان فروضهما عن الحياة قد لا تفحص، وتتفاوت في الحقيقة بعضها عن بعض ، بل قد يعارض ويناقض بعضها البعض .

الملاحظة الثانية هي ان النقد الخاص الذي وجهه فرويد على الدين بانه مرض عصبي قد عاد فرويد فخففه ولطفه في كتاب آخر من كتبه . ففي كتابه الذي جعل عنوانه « الحضارة وعدم راحتها » يقول في جزء عنوانه « مستقبل خدعة » انه « كان يهتم بأعمق مصادر الشعور الديني أقل كثيراً مما كان يهتم بما يفهمه الرجل العادي عن دينه ... » ويقول ان الدين الشائع أمر طفلي جداً ، مناقض للحقيقة تماماً ، لدرجة معها يتألم كل شخص يتجه لخدمة البشرية ، إذ يفكر ان الاغلبية الكبرى من النـــاس لن يستطيعوا ان يرتفعوا فوق هذه الفكرة عن الحياة . مع ذلك ، فكون فرويد يعترف بأنه لم يكن يتكلم عن أعمق مصادر الشعور الديني فهذا تصريح خطير . وهذا الاعتراف يفتح الباب لتوجيه الطلب الى المحللين النفسانيين ان يتفحصوا معنا بدقـــة ما هي « أعمق مصادر الدين » هذه ، وان يتمسكوا بقيمة الدراسات التحليلية في فهم هذه المصادر . وفرويد نفسه يشجع على ذلك .

www.christianlib.com

والملاحظة الثالثة هي ان بعض علماء النفس في افتراضهم ان الدين هو مرض عقلي انما يبنون افتراضهم على اساس ضعيف . فأخذُ دين شخص مريض عقلياً كمقياس لطبيعة الدين وقيمته ، يعادل القول بأن ردود فعل ذلك الشخص ، لها ان تكون مقياساً في دوائر اخرى أيضاً . ومعنى ذلك اننا نأخذ تقدير الشخص المريض عقلياً عن علم النفس وعلم طب الامراض العقلية ، كأمر نهائي . ولا شك ان هذا سيكون امراً سخيفاً ، لان علوم النفس وطب الامراض العقلية لا تلقى استحساناً كبيراً ، خصوصاً بين المرضى عقلياً ، الذين يفضلون غالباً مرضهم على بديله ، وهو المسؤولية والصحة . فعلى العلماني في دوره أن يتأنى في قبول رأي المصابين بمرض عقلي عن علم النفس وعن طب الامراض العقلية . لذلك يحتـــاج الدين أشد الحاجة الى دراسات نفسية دقيقة عن الاختبار الديني الذي يختبره الشخص الصحيح العقل ، والناضج النمو ، والمتزن التفكير . عنـــد ذلك يمكن ان يوضع الحكم على الدين كمرض في موضعه الصحيح .

الدين كسبيل للصحة . لا يتفق جميع علماء النفس بأي حال مع سيغموند فرويد في تقديره للدين . وقد سعى بعضهم لتقييم قوة الدين الخلاقة . ويتزايد عدد علماء النفس واطباء الامراض

www.christianlib.com

العقلية المقتدرين ، الذين يرون الدور الذي يلعبه الدين في علاج المصابين باضطرابات عقلية ، وفوائده الايجابية الفعالة . لكنهم على كل حال يبنون آراءهم واعتباراتهم على التفريق الدقيق بين دين شخص مصاب بمرض عصبي ودين شخص ناضج . مثلاً يسجل بول برغمان حالة مريض حصل على اختبار تجديد ديني فعال في اثناء علاجه بالتحليل النفسي . وفي هـذه الاثناء تحول ايمانه من القلق الخارجي المخيف من السلطـــة ، الى معنى ديني ايجابي داخلي . وتمسك من تراثه المسيحي بنواحيه الايجابيـــة وبالمحبة ، وخاصة بصلته بجدّته التقية والمتزنة . فضلاً عن ذلك لم يعد بحاجة الى شرب كأس حتى يحل مشاكله . وحدث ايضاً تحول كبير في بعض افكاره الانتحارية. واخيراً صارت العلاقات المتبادلة بينه وبين الآخرين اكثر واقعية واعظم دلالة .

كان لهاري م. تيبوت اختبارات عديدة في معـاملة ضحايا المسكرات . وهو يقول ان الدين يستطيع ان يؤدي عملاً ايجابياً خلاقـــاً في علاج ضحايا المسكرات ، فهو اذ يطلق « الطاقات الايجابية الكامنـــة في اللاوعي ... يحرر السكير الضحية فعلاً لمواجهة الحياة من جديد ... فيشعر انه في شركة مع الله ، ومع الناس ، ومع كل القوات الخلاقة في الكون . »

www.christianlib.com

الا ان علماء النفس هؤلاء لا يصدرون احكاماً اعتباطية عن كل نوع من الدين . نذكر منهم ليون سالزمان وهو عالم آخر في طب الامراض العقلية ، وهو يصف الاختبار الديني في اثنـــاء اجراء العلاج وبعده ، تحت قسمين رئيسيين : (١) نوع متقدم من الاختبار الديني يتجه نحو النضوج والكمال (٢) ونوع رجعي يرتـــد الى المرض النفسي . النوع الاول يتمخض عن « تحقيق ايجابي لامكانات الانسان في الوعي الذاتي ، والاهتمام بالآخرين ، والوحدة والارتباط مع العـــالم . » هذا هو الاختبار الرابط العاطف الذي يقلل القلق ، ويعمل على انسجام التطور الناضج لحياة الشخص . اما النوع الثاني ، او النوع الرجعي الذي يرتد الى اختبار المرض النفسي فهو « حل كاذب ... يأتي نتيجة قلق متزايد ، وله اثر انفصالي تفريقي على الشخصية . »

ينظر الفونس مايدر وهو طبيب امراض عقلية سويسري ، في كتابه « طرق للصحـــة النفسية » ، ينظر الى الدين كجزء لا يستغنى عنه في العـلاج النفسي ذاته . وهو يقول ان « الاستنارة النفسية والتغيير غير كافيين ، فان هنـــاك ضرورة لتطهير ديني خلقي . وعلى الانسان ان يصل الى لب الامور وجوهرها . ثم يضيف قائلاً : « ان العلم لا يشمل كل حقيقة الانسان ، اذ ان

www.christianlib.com

الايمـــان سيظل الاهتمام الرئيسي للفرد . » ويصور باقي كتابه التفاعل الحيوي المتبادل بين العلاج النفسي الطبي ، وبين العناية الرعوية في علاج الاشخاص المصابين بالمرض العصبي . وعلى عكس رأي اريك فروم المتفـــائل في الانسان ، يرى مايدر ان الانسان « مذنب امـــام الله » مقيد بالخطية ، مثقل بحاجته الى الاعتراف . وانه بواسطة الاعتراف « يسقط من على كاهله الحمل الثقيـــل ، ويصبح الانسان حراً ، كما لو كان محبوساً في سجن ضيق ، وسقطت الاسوار الفـــاصلة . » ويفسر مايدر ايضاً الاختبار الديني بأنه قبول حر مختار « للاعتماد على الله وقيادته . » وبدلا من كونه ذاتاً مقفلة غير قابلة للتعليم يصبح الآن ذاتـــاً متفتحة متعلمة ــ يصبح تلميذاً .

في هذا الفصل يقول علماء النفس مرة اخرى شيئاً مهماً عن الدين . فلقد اكدوا ما سعى انبياء الله من قبل ان يوصلوه لنا ، وهو ان التدين ليس بالضرورة فضيلة . وقد شددوا على ضرورة تعلم « امتحان الارواح » في الدين ، لنرى هل هي حقيقيـــة ام مزيفة . وقـــد كان الايمان العبري المسيحي يميز دائماً بين الدين السليم والدين السقيم ، فدعـــا الدين السقيم عبادة اوثان ، ودعا الدين السليم عبـــادة الله الحي الحقيقي . ان الاشتراك الاعمى

www.christianlib.com

الالزامي في طقوس الدين ، لا يلقى من الاستحسان والتحبيذ بين صفحات العهدين القديم والجديد أكثر مما يلقى بين علماء النفس العصريين . والفرق الرئيسي هو ان بعض علماء النفس العصريين يشعرون انهم اذا رفضوا العبادات الوثنية التافهة والخرافات الشائعة ، فلا يبقى امامهم سوى الالحاد . صحيح ان اعداء كتّاب العهدين القديم والجديد ظنوا ان اولئك الكتّاب ملحدون ومجدّفون، ولكن الكتّاب انفسهم شعروا انهم يطلبون الله الحي . ويقول علماء النفس المعاصرون ان الكثير من دين العصر الحاضر « ادى الى نوع جديد من عبادة الاوثان . فقد شيدت صورة لله ، لا من خشب وحجر ، بل من كلمات وعبارات ، حتى يعبد الناس في هذا المقدس . » ثم نراهم بطريقة مدهشة يقتبسون المسيح والانبياء ليؤيدوا وجهة نظرهم . ثم يسألون كما يسأل فروم : « أما زلنا نهتم بمشكلة عبادة الاوثان ؟.. ان جوهر عبادة الاوثان هو موقف بشري معين ... يمكن وصفه في تأليه الاشياء ، وتأليه نواحي جزئية من العالم ، وخضوع الانسان لهذه الاشياء . »

وهناك مأساة اليمة في مجتمعنا ، تقوم في ان عدداً كبيراً من العلماء والحكماء لا يستطيعون ان يرفضوا ما هو غير حقيقي وما

www.christianlib.com

بنته الاوهام في الدين الشائع ، دون ان يروا انفسهم مضطرين ان يكونوا ملحدين ، مع ان بعض عباراتهم وتأملاتهم الاكثر عمقاً تصيب في الواقع الطبيعة الحقيقية لحياة الروح ، اكثر مما يظنون . ويعزى جانب من هذه المأساة الى الدعاية القوية الملحة التي يروجها انصار الدين ، الذين يغلقون باب التمييز والبحث ، طالبين قرارات فورية « مع » او « ضد » الدين كما يرونه هم . ونتيجة لذلك ان انصار الدين هؤلاء يقسمون الناس الى « فريق داخلي » و « فريق خارجي » يشتد بينهما التوتر فيمنع كل اتصال حقيقي ، الا بين اولئك الذين يتكلمون لغة « الفريق الداخلي » ، ويشتركون في المضامين العاطفية التي تتعلق بتلك اللغة . وهناك ما يدعو الى الظن بأن هذه العملية نفسها تسري ايضاً بين الفرق المشتركة في مهنة واحدة ، مثل علماء النفس . وهذا يبين صعوبة وضرورة الحاجة الى مجهود حقيقي تبذله الكنائس للمحاورة مع الاشخاص الممتهنين ، ولو بغير هدف معين لزيادة عضوية كنائسنا . لقد سارعت الكنائس لضم رجال الاعمال اليها ودمجهم في حياتها وقيادة هيئاتها العاملة . لكننا كنا مبطئين ، وغير مكترثين ، ومرتابين ، بل اتخذنا في بعض الاحيان موقف العداء

www.christianlib.com

من الاستفادة بمصادر الاشخاص الممتهنين . لكن هنـــاك نمو نشيط اخذ يتزايد في هذه الناحيـــة كما يتجلى في تدريب الخدام للتعـاون مع الاشخاص المحترفين من مهن اخرى في العنايـــة الرعوية ، ولمواجهة المشاكل الدينية والفطنة العلمية التي بها يدنو هؤلاء الاشخاص من قضية الحياة الدينية وحاجات الناس .

www.christianlib.com

الفصل السادس

الدين : هل هو تضليل أم طريق للحقيقة ؟

ان الطاقة على التمييز بين الوثن والاله الحي الحقيقي ، بين البطل والحقيقة ، تأخذ في حسابها **مقدرة الانسان على ادراك الحقيقة ، وعلى رؤية الاشياء كما هي.** وعالم النفس يأتي بعمليات الادراك الى معمل المختبر . ويسأل اسئلة عن قدرة الانسان على تقييم ما هو حقيقي، وعلى فصله عما هو غير حقيقي. لذلك عندما يبدأ علماء النفس يتكلمون عن الدين ، يجدر بنا ان نراعي ما يذكرنا به الاستاذ روبرت ب. مكلويد ، من جامعة كورنل بان عملهم هو « التمييز بين ما هو تضليل وما هو تصوير حقيقي . » وسيظل الدين امراً مفتوحاً لعالم النفس في هذه الناحية ايضاً . ويأبى عالم النفس ان يصدر حكماً على أي نوع

www.christianlib.com

من انواع السلوك البشري ، لا سيما السلوك الديني ، قبل ان ينظر اليه ويتفحصه . لهذا ، فان فرضاً آخر من الفروض « المفتوحة الطرفين » في علم النفس المعاصر عن الدين ، هو هـــذا : « ان الدين قد يكون تضليلا ، ولكنه قد يكون طريقاً الى الحقيقة . » وكل طالب ادراك يعرف انه من الصعب جداً ان يرسم خطاً فاصلاً بين ما يدرك ادراكاً صحيحاً ، وما يدرك ادراكاً غير صحيح . لذلك قد يستنتج ان كل الادراك تضليل ، وان قيمنا لا سيما قيمنا الدينية ، هي اساسياً « الارادة بأن نؤمن » على أي حـــال ، وبأننا نؤمن بما نريد ان نؤمن به ، بقطع النظر عن الحقيقة او الوهم في الادراك .

الدين كتضليل . ان الخدمـة الكبرى التي اداها علم النفس الحديث ، هي التشديد الجازم على النواحي الشخصية في الايمان الديني . وقد نبّر سورين كيركغارد على هـــذا حين قال ، ان الحق الذي يبني ، الحق الذي يستحق استخدام الوقت الثمين في التأمل فيه ، هو الحق لي . بعبارة اخرى ، ان الحق الذي صار حقاً حقيقة في اختباري الشخصي ، الذي اخصصه داخلياً لنفسي ، هو الحق الوحيد الذي يبنيني . والشخص التقي المتدين يقول هذا الكلام بعينه ، عندما يصرح انه ما لم يكن لنا اختبار شخصي مع

www.christianlib.com

المسيح ، لا نستطيع ان ندرك معنى الكتاب المقدس . وهو يمضي على الارجح الى ما هو ابعد ، فيقول أن اجزاء الكتاب المقدس التي صارت ملكه ، لانه يعرف من اختباره الشخصي انها حقيقية ، تختلف عن الاجزاء الاخرى من الكتاب المقدس ، تلك الاجزاء التي لم تصبح ملكه ، التي لم يستوعبها ويطبقها شخصياً . عرّف فريدريخ شليرماخر (١٧٦٨ ـ ١٨٣٤) وهو واحد من طلائع مفسري الدين بمقتضى علم النفس ، عرّف الله بعبارات واصطلاحات الشعور البشري بالاتكال المطلق . فالله كمنبع هذا الشعور هو في نظر شليرماخر ميدان التخمين ، اما الله كموجود حقاً فهو هذا الشعور البشري بالاتكال المطلق في الانسان . ومع ان تشديدات كيركغارد وشليرماخر انتجت وعياً شديداً للنواحي الشخصية للايمان الديني ، الا انها اثارت اسئلة خطيرة عما اذا كان وجود الله مستقلا باي حال عن وجود الانسان ، وعما اذا يكون الله ان لم يكن هناك الانسان .

وقد حول لدفك فويرباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) هذه الاسئلة الخطيرة الى اجابات ، تكفيه هو على الاقل . وقد كرس نفسه لتحويل علم « اللاهوت » الى علم الانسان ، لانه قال « الانسان هو بداءة ، ووسط ، ونهاية الدين . » وشعر فويرباخ ان

www.christianlib.com

الانسان ، بسبب عدم استطاعته ان يعرف الله بـــدون وعيه وشعوره، قد اعفى نفسه من مطاليب « ما تبقى من شعوره الديني لسبب نسيانه الله . » ونحن نسيء فهم فويرباخ اذا رأينـــا في تعاليمه محاولة للتقليل من شأن الدين وعلم اللاهوت . وكما يقول بارت مرة اخرى « عندما يربط فويرباخ الله مع جوهر الانسان، يقدم بذلك اعظم اكرام لله يستطيع ان يقدمه . »

وما يفعله فويرباخ بالضبط هو ان يعادل الله بجوهر الانسان. فانه يقول ان « الكائن الالهي ، ليس اكثر من كائن بشري ، او بالاحرى من طبيعـــة بشرية ، نقيت وتحررت من محدوديات الانسان الفرد وصارت موضوعية ... » ثم يمضي فيقول : « اني لا استطيع أن اعرف ان كان الله شيئاً آخر في ذاته او لذاته اكثر مما هو لي . فكل ما هو لي هو كل ما هو في ذاتـــه ... والانسان المتدين يجد اكتفاء تاماً في ما يكون الله في علاقته معه... لان الله هو بالنسبة له ما يستطيع ان يكونه هو وحده للانسان... اما التمييز بين الموضوع والفكر ــ بين الله كما هو في ذاته والله كما هو لي ــ فتمييز مليء بالشكوك والارتياب ، وهو لذلك تمييز يقوم به الشاك" فهو تمييز غير ديني . » لذلك فان فويرباخ بادراك عميق للنواحي الشخصية في الدين، بسط رأيه في الدين بأنه « حلم

www.christianlib.com

العقل البشري » باعتبار ان غرض الدين هو معرفة النفس . وما الفادي العجيب سوى تحقيق رغبة الشعور في التحرر من قوانين الآداب والاخلاق ... وبهذا يصبح الانسان حراً ادبياً وصالحاً عن طريق المعجزة . »

الا ان تقوى فويرباخ لم تصدق ولم تظفر في الطريقة التي شرح بها علماء النفس العصريون افكاره في قرينة مليئة بالشكوك المحضة . ومن الذين اتبعوه في ان الدين يختص بعمق روح الانسان كارل ماركس. نحن عادة لا نعتبره عالماً نفسانياً . الا انه ادى خدمة كبيرة في تفسير الدين كضلالة نفسية . فلقد قال : « ان العالم الديني ما هو الا انعكاس العالم الحقيقي . » وكان واثقاً ان هذا « الانعكاس الديني ، سيزول وينتهي » عندما تقدم الحياة للانسان « ... علاقات معقولة صريحة مفهومة فيما يختص بالآخرين وبالطبيعة . » وقد اعتبر كارل ماركس ان الدين تضليل يحفظ الناس سعداء على رجاء عالم غير حقيقي ، في وجود آمال محطمة واوهام كاذبة مريرة في العالم الحقيقي ، يمنع من رؤية الاشياء كما هي .

وقد بنى ايضاً سيغموند فرويد شهرته عن الدين ، بنظريته القائلة بأن الدين تضليل . وقد عرّف التضليل بانه رغبة او تمني.

www.christianlib.com

وبالاختصار قال اننا نرغب او نتمنى «حماية من عواقب الضعف البشري ، لذلك نصوب هـذه الرغبة نحو نظام كوني ونقول انه يوجد إله . ويقول فرويد ان الضلالة الدينيـــة هي « من أقدم رغائب البشر الحاحاً ، ومن اقواها وأشدها ، وان قوة الدين تقوم في قوة هذه الرغائب . » وقد فسر فرويد الدين كما فسره فويرباخ قائلاً انه مزيج من احلام البشرية ، وصرح بان دين الرجل العادي الشخصي والمحبوب لديه هو « الدين الوحيد الذي يجب ان يحمل اسم الدين . » على كل حـــال ، لقد اتخذ فرويد موقفاً مؤداه ان الدين يرى العـــالم الحقيقي « محرفاً كضلالة وخدعة » ولذلك « يؤثر تأثيراً مخيفاً على العقل . »

هـــذا التقييم المتحدي للدين ، التقييم الذي يقدمه فرويد وماركس ، يطعن في صميم علاقـــة الشخص المتدين بالحقيقة . وبذلك تصبح مشكلة الرجاء كلها في خطر . فان الدين يحمل في طياته آمال البشر ورجاءهم ، جزئياً على الأقل . وكاتب الرسالة الى العبرانيين يعرّف الايمان بانه « الثقة بما يرجى والايقان بامور لا ترى » (عبرانيين ١١ : ١) . مع ذلك يؤكد ماركس وفرويد أن الانسان ما لم يحقق رغائبه ويتمم امانيـــه ، يبني حياته على اساس الرغبة والامل . وهذه خادعة ومخففة لآلامه .

www.christianlib.com

الدين كسبيل الى الحقيقة . هذا التقييم النفسي للدين كضلالة ساعد الدين من ناحية سلبية ، بتعريف الله سلبياً أي بالقاء ضوء على افكار خاطئة عن الله . علاوة على ذلك ، لقد دفعنا علماء النفس الى تحليل قدرة الانسان على معرفة الله تحليلاً أعمق . لقد اخبرونا بما علمناه وكان يجب ان نعلمه من قبل ، وهو ان معرفتنا بالله ليست إلا «انعكاساً محيراً» انعكاساً كما « في مرآة في لغز . » اننـــا نعرف بعض المعرفة ونتنبأ بعض التنبؤ . وكم نسينا ، في محاولاتنا لتعظيم كمال عمله لاجلنا في المسيح ، ان ادراكنا لاعلان الله جزئي ومشوّه . ولقد ذكّرنا علماء النفس بذلك لفائدتنا العظمى . ونحن اذ نستعين بهم لا نستطيع ان نتمادى او ان نتطرف ونرفض ما نعرفه عن الله كأنه معرفـة غير صحيحة . ومع اننا ندرك تمام الادراك انه لا معرفة لنا بالله سوى ما يأتي الينـــا عن طريق ذاتيتنا ، ومـــا نعيه بادراكنا ، الا اننا لا ننقض معرفتنا بالله ، ثم في الوقت نفسه نثق في ما لنا من معرفة غير التي تأتينا بالطريقة ذاتها . مع هـــذا ، فقد علمنا علماء النفس ، كما يقول روبرت ب. مكلويد أن « الذات يجب ان تعتبر عاملاً مهماً واحداً من عدة عوامل في قضية نفسانية » وان ادراكنا للحقيقة يتأثر تأثراً مباشراً « باستقرار الذات أو عـــدم استقرارها . »

www.christianlib.com

بعبارة اخرى ، لا يكمل تفسير نفساني للمعرفة دون تفسير نفساني للذات .

مع ذلك فان حقيقة طبيعة العالم والله تعمل مستقلة تماماً عن رغائبنا واحلامنا وآمالنا واستقرارنا او عدم استقرارنا. فالحقيقة في ذاتها ومن ذاتها ، لها طرقها التي لا تتأثر بانحراف نزعاتنا الشخصية عن افكارنا الذاتية أو احلامنا أو امانينا . فالمربع ليس دائرة. والطاولة ليست كرسياً. والباب ليس حائطاً جامداً. والكتاب المقدس ليس قاموساً . والكنيسة لم تؤسس بالامس . ويسوع الناصري ليس بوذا . علاوة على ذلك ، عندما يبدأ احدهم يغالي اكثر من اللازم في الاحتجاج ويقول ان هذه الامور هي من نتاج رغائبنا ، وانها تكيفت بمقتضى حاجتنا الى الحماية ، نضطر عندئذ ان نستنتج انه هو أيضاً في حاجة الى الحماية . وهو أيضاً ممتلىء بالرجاء بانه من الممكن ان يقدم فوراً وبشكل تام ، تصريحاً علمياً مضبوطاً عن الحقيقة في مجموعها . وهو أيضاً ممتلىء بالرجاء بان الانسان يستطيع ان يحظى بعلاقة معقولة ، كاملة الادراك ، مع زميله الانسان ومع الطبيعة . وهذه في ذاتها رغائب وآمال . بل هي ضلالات واوهام ، ينطبق عليها محك الحقيقة ذاته ، الذي يطبقه منشئوها على الدين .

www.christianlib.com

وهكذا نصيب حداً من الحدود الثابتة لعمل العالم النفساني . فهو يستطيع ان يساعدنا في مقياس العمليات التي تكمن تحت اختبارنا في الله . ويستطيع ان يقدم لنا اوصافاً عملية عن حقيقة ناحية من العالم ، تلك الناحية الاقرب منالا . وهو كفيلسوف ورجل دين يستطيع ان يشترك معنا في بحثنا عن طبيعة الحقيقة النهائية ، وفي طلبنا لله . او هو يستطيع ان يرفض الاشتراك معنا لاسباب شخصية عنده . ومهما تكن النتيجة التي يصل اليها ، فان معتقداته وفروضه الفلسفية تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها معتقداتنا وفروضنا . انما خدمته العظمى لنا هي انه يساعدنا ان نفهم بشكل ادق « الانعكاسات المحيرة » والارتباكات التي يسببها عدم استقرار الذات ، ونحن نسعى لادراك الله . لكنه يقدم لنا خدمة اكثر ايجابية ، اذا حقق لنا اوصافاً يعتمد عليها عن اختبار ديني لشخص بالغ ، اختبار مستقر ، ناضج ، منتج . ما الذي يجعل الشخص العادي الذي يبدو متديناً ، شخصاً منتجاً خلاقاً ، ان كان ذلك ؟

وعلماء النفس اليوم يقولون ويكررون القول الذي قاله غوردون البورت ان « الشخص السليم ، الطبيعي العقل والادراك والنضوج العاطفي ، يعرف انه لا يستطيع ان يحل مشاكل الحياة

www.christianlib.com

بالرغائب والتمنيات ، او يعالج نقصه بالاوهـــام . » انه يقول « ان الشخص النامي المتطور لا يكوّن دينه من اجزاء وبقـــايا عاطفية ، لكنه يطلب نظرية عن كيان تلتقي فيه الاجزاء وترتب بصورة لها مغزاها . » بمعنى آخر ستكون له عاطفة دينية شاملة ، ولكنه، حتى في هذه المرحلة، سيدرك ان فهمه محدود ، وناقص، وجزئي ، لدرجة ان فكرته عن العالم الديني ستنتج فيه تواضعاً لا غروراً وكبرياء . ويساعدنا كثيراً علماء نفس الشخصية في هـــذه النقطة ، او كما يقول البورت : « ان علم النفس كعلم لا يستطيع ان يثبت او يدحض دعاوي الدين للحق . لكنه يستطيع ، على كل حال ، ان يساعد في تفسير هذه الحقيقة ، وهي لماذا هـــذه الدعاوي كثيرة ومتنوعة ... ان الحقائق النهـــائية للدين غير معروفـــة ، لكن علم النفس الذي يمانع في فهم طاقات الانسان الدينية ، لا يستحق ان يسمى علماً للنفس البشرية اطلاقاً . »

وفي حين أظهر علم النفس ان الدين يمكن ان يكون تقهقراً وارتداداً عن الحقيقة ، فلقد شدد علم النفس في حالات كثيرة على دور الاهتمام الديني في السعي وراء الحقيقة . وها هو البورت يوجـــه التفاتنا الى تعليم كرت غولدشتاين عن تحقيق الذات كمثال على ذلك. وهو يذكر أيضاً فكرة التحليل النفسي الحديثة

www.christianlib.com

عن « الذات المحصنة » التي تستطيع ان تقـاوم تجارب الدافع المحرك، ومشتتات البيئة ولهو تسلياتها وتظل دائبة على العمل الايجابي المنتج الخلاق ، وعلى السعي وراء المثل العليا الجديرة بالتأمل والتبصر. وهذا يؤدي الى توحيد الشخصية والسمو على النضال .

ويتحدث اندرس انغيال وهو عـالم نفس آخر من علماء الشخصية ، عن « وضع » الشخصية . ويقول ان هناك اوضاعاً مختلفة للمواقف ، إما تخضع بعضها لبعض ، او تتقدم بعضها على بعض في مجموع هيئة الشخصية . ويصف انغيال الكيفية التي بها قد يقرر وضع معين للشخصية الاتجاه التـام لوجود الشخص ، ويكوّن النظام الكامل لبديهيات سلوكه . وتسديد اتجاه هـذا « المعنى الرئيسي » للحياة قد يكون نحو الحقيقة او بعيداً عنها ، او قد لا يكون هذا ولا ذاك . يقول روبرت مكلويد ، بوصفه عالم نفس ، ان ما يؤثر فيه عن الشخص المتدين حقاً هو « ثباته ، وشجاعته ، وولاؤه ، ورسوخ ايمانه ، واقتناعه بان للحياة معنى عميقاً ، وبان كل ما يحدث له كفرد انما هو قليل الاهمية نسبياً ، اذا ما قورن بما هو أعظم من نفسه . »

ولقد ساعدنا علم النفس كثيراً في تكوين هـذا النوع من الناس ، في كونه جعلنا ندرك الانحرافات عن الحقيقة ، وعدم

www.christianlib.com

الانسجام معها ، والنكوص عنهـــا ، تلك الامور التي تمنع بل بالحري تمسخ صورة الفضائل التي تحدث عنها مكلويد . لقد تكلم علم النفس . أجل لقد تكلم لنا كثيراً عن الحقيقة ، ولكنه لم يساعدنا في تعريف ماهية الحقيقة . في هذه النقطة بالذات نجد علماء النفس اكثر غموضاً وابهاماً وأقل تحديداً من الفلاسفة واللاهوتيين وغيرهم من العلماء . ولو حاولوا تعريف الحقيقـــة واعطاء ارشاد واضح في هذه النقطة ، لكان عليهم ان يستمدوا آراءهم من اسلافهم في الفلسفة وعلم اللاهوت لاستقاء المعلومات والاساليب وعمق الادراك والحكمة لان هذا عمل فلسفي ولاهوتي اساسياً .

كم جاهد اللاهوتيون المسيحيون عبر العصور ، لادراك الفرق المتأرجح بين الخدعة والحقيقة . ومنذ عهد بولس الرسول وهم يشعرون بصورة ما بعجزهم عن ادراك **المحبة القصوى** . لقـــد عرفوا باقتناع تتفاوت درجاته، بأن رؤياهم لله كانت انعكاسات مربكة كمن يرون رؤيا « غامضـــة » كما في مرآة في لغز . انما كانت نقطة انطلاقهم دائماً وابداً في مواجهتهم وانحصارهم في شخص الرب يسوع المسيح . فقـد كان الاعلان قبله بصورة تختلف ، وكان جزئياً . اما فيه فقد صار الله ، كما هو في ذاته ،

www.christianlib.com

والانسان في جوهره الكامل ، واحداً . فالضرورة التي شعر بها فويرباخ بتعريف الله كالانسان المكمل ، والشكوك التي ساورت فرويد عن شرعية معرفة الانسان عن الحقيقة النهائية المطلقة في الله ، يتلاقيان في الحل في شخص المسيح ، الاله الانسان. ويقول سورجيت سنغ ، وهو سيخيّ هنـــدي اهتدى الى المسيحية ، ويشغل الآن منصب استـــاذ الفلسفة في مدرسة اللاهوت بسان فرنسيسكو ، يقول اننا نحن المسيحيين « نبدأ لا من الانسان ولا من الله . فان نقطتي الابتداء هاتين ليستا في متناولنا . » نحن لا نبدأ مـــن الله ، كالله . ولا نبدأ من الانسان كانسان . فكلا الامرين غير ملموس لنا . انما نحن نبني فهمنا لذات الانسان ، وشخص الله ، على الاعلان الذي رأيناه تاريخياً في يسوع المسيح. اذ فيه « الكلمة صار جسداً وحل بيننا (ورأينا مجده . . .) مملوءاً نعمة وحقاً » (يوحنا ١ : ١٤) . يسوع هو الحقيقة .

والمشاكل التي تجـابه اللاهوتيين المسيحيين ، ولو صيغت في عبارات مختلفة ، وفي اطارات متنوعة من الاتجاهات الفلسفية ، ستبقى هي المشاكل التي يواجهها عالم النفس حين يحاول ان يقدم لاتباعه ادراكاً واضحاً لما يعنيه بـ « الحقيقة » . ان اللاهوتي المسيحي ، اذ يشترك مع عالم النفس في البحث والدرس ، يجد

www.christianlib.com

ان الخطوط العريضة لعلم اللاهوت تنال تحليلا وتركيباً اكثر تحديداً واوسع تفصيلاً ، في المعلومات والبيانات التي اكتشفها علماء النفس في بحثهم طبيعة الانسان .

يجب ان لا يُبعَد ولا يُستثنى عالم النفس من مهمة علم اللاهوت والفلسفة . بل يجب أكثر من ذلك ان يدعى للمحاورة والبحث ، لانه في الحقيقة لا يمكن اعفاؤه من ذلك . ولكن عليه هو ايضاً ، اذ يدخل غرفة البحث والتقصي ، ان يترك اعتقاداته الخاصة ونظرياته الشخصية، كما يشدد هو على الفيلسوف واللاهوتي ان يفعلا ذلك . لقد سلم بأن الانسان لا يستطيع ان يعيش بدون معنى رئيسي لحياته ، وقد ساهم بجهوده مع الذين سعوا ان يصوغوا ارشاداً واضحاً للبشر ، عن طبيعة الحقيقة المطلقة ، وعن الغرض الاسمى للحياة ، والاسباب الخالدة للكينونة . وقد اشترك علماء نفس كثيرون في هذا البحث وفي هذا المسعى . وشددوا على ضرورة المعنى في الحياة . وشددوا على انه من المهم ان يكون ولاء الانسان لمثله العليا ولاء ثابتاً . فلنصغ الآن الى ما يقولونه عن الدين .

www.christianlib.com

الفصل السابع

البحث عن المعنى النهائي في الحياة

اذ نراجع ما قاله علم النفس عن الدين الى الآن نلاحظ اربع مراحل في هذا الحوار . اولا نرى علم النفس علماً صامتاً لا يقول شيئاً عن الدين . مثلا نلاحظ ان أ. ب. بافلوف (١٨٤٩ ــ ١٩٣٦) قد عمل بصبر وجد ، ليبتكر تجارب واختبارات حتى يثبت فكر الفعل العكسي المشروط . وفي عام ١٩٠٤ منح جائزة نوبل لعلم وظائف الاعضاء والطب ، لبحثه الممتاز على الغدد الهضميـــة . وولتر ب. كانون (١٨٧١ ــ ١٩٤٥) استنبط اجهزة وآلات مضبوطة لدرس التغيرات الجسمانية المرتبطة مع الالم ، والخوف ، والجوع . وقد وضع اساس فكرة القياسات النفسية في الطب، الفكرة التي تشدد على العامل النفسي في المرض. وقد اعطانا البحث العميق الرهيب عن « حكمة الجسم » المعقدة .

www.christianlib.com

لكن هؤلاء الرجـــال ليسوا معروفين بسبب تصريحاتهم عن الدين ، فما اقـل علماء النفس الذين تكلموا بغوغائية وبشدة عن الدين ، كما فعل جون ب. وطسون .

في المرحلة الثانية في ما يقوله علم النفس عن الدين ، نجد رفضاً صريحاً وقحاً مصحوباً بالغوغاء والجعجعة. وهذا ما يميز ، مثلاً ، التصريحات المتطرفة التي ادلى بهـــا امثال وطسون وسيغموند فرويد . وهم في محاولاتهم المحمومة ان يخلقوا ديناً من علم النفس ذاته ، صرحوا بان كل سابقيهم من المتدينين كانوا اما اغبياء او اطفـــالا . وتجاهلوا في الوقت نفسه ان افكارهم واعتراضاتهم تلقى هذه الانتقادات عينها . مع ذلك فان خلفاءهم سرعان ما لطفوا تلك الانتقادات وخففوهـــا ، ولو انهم ظلوا مخلصين لنتائج البحث التجريبي التي كشفها معلموهم . اما حركة التحليل النفسي ذاتها ، فقد انقسمت مراراً نظراً لعجز قادتها عن احتمال الآراء التي تختلف عن آرائهم .

في المرحلة الثالثة نجد علماء النفس يقفون من الدين موقفـــاً انتقادياً ، لكنه موقف ودي مصحوب بالحذر . هـــذا ما يميز الفروق البينة ، والتقديرات المتحدية ، التي نراها في اشخاص امثال ادولف ماير ، وغوردن البورت ، وارك فروم ، وكارل

www.christianlib.com

منغر . هؤلاء الرجـــال يقتربون من موضوع الدين بعواطف متنوعة . فيقدمون لنا انتقاداتهم الاساسية ، واقتناعاتهم الايجابية العميقة . وقد ساعدوا في توضيح ، وتنقية ، وتوجيه بواعثنـــا الخفية لتديننا . او كما قال جون بيلي اللاهوتي الشهير ، انهم قد ساعدونا لنكون أكثر تحديداً في اعترافنا بالخطية . وقد ساعدونا في بلوغ تواضـــع احكم ، وولاء اشد اخلاصاً ، لما ندرك انه المطلب النهائي لحياتنا .

المرحلة الرابعة التي يقدم فيها علم النفس المعاصر خدمـــة لبحث الدين ، هي مرحلة احدث من الكل . فمنذ عام ١٩٥٠ بدأ علماء النفس يتكلمون عن الدين بصوت يدل على اقتناع لا تشويش فيه ولا اضطراب. ويتكلمون بصدق وصحة كأشخاص لهم الحق فيما يقولون ، وكممثلين لمهنتهم . فقد اكتشف علماء النفس هؤلاء الدافع النابض الحي للروحانية ، كما تفهم وتدرك نفسياً (سيكولوجياً) . فالدين في اسماه في الشخص البالغ السليم، يتكون من المعاني النهائية التي بها يحيا الانسان ، وفي سبيلها اختار ان يعيش ، بل ان يموت اذا دعت الحال .

وقد حذا علماء النفس هؤلاء حذو جوسيا رويس (١٨٥٥ــ ١٩١٦) في اعادة تقديرهم للتغير النفساني لمعنى الحياة وللولاء .

www.christianlib.com

كانت مثالية رويس تتركز في « فلسفة الولاء » . وقد عرّف الولاء بانه « الارادة لاظهار الابدي الخالد ، بقدر ما هو ميسور ، أي وحدة الحياة الواعية والفائقة الطبيعة ، في صورة اعمال الذات الفردية . » ومضى بعد ذلك يشدد على ان الولاء « هو الارادة في ان يؤمن الفرد بشيء ابدي ، والتعبير عن ذلك الايمان او العقيدة بالحياة العملية التي يحياها ذلك الفرد . بكلمات اخرى ، ان انسجام الشخصية يرتكز بالاكثر على الاخلاص ، والثبات ، والطبيعة الابدية الخالدة ، لهدف الولاء الذي تلتف حوله وتنسجم معه الشخصية. فاذا لم يكتشف قط المعنى المركزي والهدف الرئيسي للولاء ، او ثبت انه باطل وكاذب ، او ابادة الموت ، او تلاشى لاي سبب من الاسباب ، فلا يبقى امام ذلك الانسان إلا احد امرين : اما ان يكتشف لنفسه مركزاً جديداً وولاء جديداً ، او ان يهلك لعدم وجود معنى او مغزى لحياته .

الدين وتهديد اللامعنى . يتزايد اليوم عدد علماء النفس الذين يوجهون التفاتنا الى الكيفية التي بها تُسلب حياة البالغين معناها ، وتمتلىء بالسآمة والضجر ، وتفعم بالقلق والهم ، نتيجة لذلك . وقد ميز كارل ج. يونغ بين المرضى الذين يقاسون مرضاً عصبياً يُشخّص طبياً وبين المرضى الذين غُلبوا على امرهم وليس لهم

www.christianlib.com

هدف لحياتهم بل يقاسون عدم المعنى للحياة . لذلك نجد ان يونغ في طريقته النفسية اراد ان يجابه المشكلة على صعيد أعمق . وقد رأى فرويد ينتقد الدين انتقاداً عميقاً ، بلغ مبلغ الرفض التام . فكان لذلك اكثر حذراً وتميزاً في تقديره للدين ، واستخدم كل جهازه ومؤهلاته العلمية ليكشف أهميته لحياة الانسان النفسية . ويقول يونغ انه عندما يشعر شخص انه مدعو للولاء والتكريس لهدف معين ، فانه يقدم ذلك الولاء كاملاً ويشعر عند ذاك ان لحياته معنى . ويمضي فيقول اذا تكلمنا باللغة النفسية نقول : عندما تؤخذ مسألة ديننا فهي تؤخذ كشيء مهم جداً ، ذات قيمة خاصة ، بل كشيء يؤثر في الانسان كله ، ويؤثر لذلك أيضاً في اللاوعي ، وعند ذلك تصبح هذه المواقف نهائية قاطعة ، لان «أي موقف نهائي قاطع هو دائماً موقف ديني . » ثم يزيد على ذلك قوله : « في أية نقطة تجد الانسان فيها جازماً قاطعاً ، فيها تجد دينه . »

ان الكليات الجازمة القاطعة التي بها يحيا الناس ليست مجرد آراء يتمسكون بها بفتور وارتخاء ، انها معان وقيم يعيشون لاجلها ، ويرغبون ان يموتوا في سبيلها . ويقول غوتهارد بوت ، المحلل النفساني ، ان لديه اسباباً نظرية واختبارية تدعوه للاعتقاد

www.christianlib.com

ان صحة المسيحي الصميم ، او الملحد المنـــاضل ، أفضل من صحة الشخص الذي « لا يجد شيئاً في العالم لأجله يحيا ولأجله يموت . »

بالاختصار يقول يونغ وبوت ، ان معتقـــدات الانسان الاساسية هي مسائل حياة وموت بالنسبة له . فهو يقاسي كانسان تام بجملته ، عندما لا تظفر حياته بالمهنة ، والدعوة ، والمعنى ، والسبب النهـــائي للوجود . فالدين في صلبه ، بالنسبة للشخص المتدين ، هو الباعث الاعلى لكيانه ، وهو ذلك المعنى الجوهري لوجوده .

تبقى الحقيقة قائمة ، وهي ان عمق واتساع الحياة اللامعنى لها عنـد الافراد والجماعات اليوم ، هي من أشد وأفظع التهديدات التي تهـــدد وجودنا . ويأس الانسان العصري قائم في فقدان رجائه . ونستطيع ان نقول مع برنارد شو : « ما هو الرجاء ؟ صورة من المسؤولية الأدبية . هنا (في جهنم) لا يوجد رجاء ، ونتيجة لذلك فلا واجب ، ولا عمل ، ولا فائدة تجنى من الصلاة ، ولا خسارة تحدث لك ، ان كنت تعمل ما تريـــد وتهوى . وبالاختصار فان جهنم هي مكان ليس امامك فيه شيء تعمله سوى ان تسلي نفسك . » هـــذا هو نقيض الحياة الروحية ذات

www.christianlib.com

المغزى . فانه كما يقول بول تلخ « ان القلق من اللامعنى هو قلق من فقدان الاهتمام النهائي ، وفقدان المعنى الذي يمنح معنى لكل معنى . وينشأ هـــذا القلق عن فقدان المركز الروحي ، فقدان الجواب ، مهما كان رمزياً وغير مباشر ، الجواب الوحيد لمعنى الوجود . وعندما يحدث هذا يضطر الانسان ان ينتقل من هدف للولاء الى آخر ، لان معنى كل هدف منهـــا ينتهي ويزول ... ويتحول الى عدم اكتراث أو مقت واشمئزاز . فيحاول الانسان كل شيء ولا يكتفي ولا يرضى بشيء . » ويتلخص اللامعنى الذي يتسم به عصرنا في قصيدة من قصائد مينو درويه الفتـــاة الفرنسية التي تبلغ الثامنة من العمر ، وهي تصف قلبها « كقارب فارغ » يتجه الى ميناء « لا وجود له . »

وكان ميل علم النفس ان يزيد هذا الفراغ ، وهذا اللامعنى ، في اثناء مراحله الاولى ، بواسطة احكام سلبية شاملة عن الدين . يقول روبرت مكلويد في علم النفس المعاصر ، نجد الدين كأنه أمر ثانوي يمكن تقليل شأنه ، او كأمر خاص يمكن الاستغناء عنه ، او كأمر له قيمة عمليـــة يمكن استغلالها . » اما من ناحيتي الاستغناء والاستغلال ، من وجهة نظر التهذيب ، فقد تقدم علماء النفس الى بحث أخطر بكثير ، عن المعنى الجوهري للحيـــاة .

www.christianlib.com

يقول لورنس كول ان على علم النفس ان يواجه القيم الاساسية التي يتبناها ويحتضنها . اما الرجاء المذهب للعلم كالمعنى النهائي للحياة ، فقد اهتز اهتزازاً جذرياً بما حدث في السنوات الاخيرة منذ بسط فرويد هـــذه الضلالة الخاصة . وعلماء النفس الآن يقومون بمرحلة اعادة البناء .

وقد ارتفع ، حتى في مرحلة سابقة ، صوت يحمل نغمات ايجابية واضحة ، عن تفسير الحياة تفسيراً نفسياً ذات مغزى ، وقد عارض فرويد هذا الصوت بشدة . كان ذلك صوت الفرد ادلر (١٨٧٠ ــ ١٩٣٧) الذي شدد على الحاجـــة الى مسعى تعـــاوني بين التفسير الديني والتفسير النفسي للانسان . فقد قال ادلر ان النوع المادي من علم النفس « يعوزه الهدف ، الذي هو على كل حال جوهر الحياة » وان « الرأي الديني ، وهو المتقدم كثيراً في تهيئة اهداف للحياة ، يعوزه الاساس العلمي ، لان الله لا يمكن البرهنة عليه علمياً . هو هبة الايمان ... ان الله كهدف الانسان هو الجواب والتكملة لحركات الانسان المتلمسة والمخطئة في سبيل الحياة ... ويقيناً لم يكن هدف وضع الله اولاً ، كما في الاسفار المقدسة ، وكما لا يزال الامر اليوم في النفس المتدينة ، لم يكن هـــذا الهدف غير واقعي ، أو حماساً دينياً خالياً من عمق

www.christianlib.com

الادراك . » وقد قال ادلر هـــذا في معرض بحثه عن « تقديس العلاقات البشرية . »

لقد اكتشف علماء النفس ، خصوصاً منذ الحرب العالميـــة الثانية ، أنك اذا استطعت ان تري انساناً عملاً يدعوه هو بوصفه رجلاً متديناً عملاً من اعمال الله (التي تعلم مؤخراً ان يدعوها باسماء جديدة) استطعت ان تجعله يغامر كلياً بالنتائج بالنسبة له شخصياً . انك تكون بذلك قد منحته شجاعة لوجوده ، وهذا ما دعاه بول تلخ « الشجاعة على ان يكون . »

كان فكتور فرانكل أحد اطباء الامراض العقلية من فينا ، ممن اسروا واعتقلوا في معسكرات الاعتقال في المانيا في اثنـــاء الحرب العالمية الثانية . وهو يبين انه في حين ان المريض عصبياً يميل الى التخلص من عمل بعـــد آخر حتى يتجنب المسؤوليـة الاساسية ، نجد « ان الخاصية الاساسية للشخص المتدين هي انه رجل شاعر برسالة حيـــاته ... ومسؤول عنها . » وهو يقوم بعمله كأنه صادر من سلطة عليا ، لذلك ابتكر فرنكل ما دعاه « التحليل الوجودي » الذي يهدف الى « الاتيـــان بالمريض الى اعلى نقطة ممكنة في التركيز والتكريس . » وهو يقول : « ان عملنا اذاً هو ان نظهر كيف ان لحياة كل انسان هدفاً فريداً ، لا

www.christianlib.com

يؤدي اليه إلا سبيل واحد ... فان كان المريض يعترض قائلاً انه لا يعرف معنى لحياته ، فان الامكانات الفريدة لوجوده لا تظهر له . اذاً يكون جوابنا فقط ان عمله الاساسي ان يجد طريقه الى عمله الصحيح ، وان يتقدم نحو معناه الخاص في الحياة ، ذلك المعنى الفذ الفريد.» أما عن الدين فيقول فرنكل : « ان الشخص المتدين ، من وجهة النظر النفسية ، هو الشخص الذي يختبر ليس فقط ما يقال ، بل يختبر المتكلم أيضاً ، اي ان حاسة السمع عنده اقوى من حاسة الرجل غير المتدين . وفي حواره مع ضميره ، وهو أعمق حوار مونولوجي ممكن ، يكون الله كليمه ... فان اختبار الله بالنسبة للشخص المتدين بهذا المعنى ، معنـــاه اختبار الذات الاخرى ، النهائية .»

اما طبيعة هذه **الذات الاخرى** التي يتكلم عنهـــا فرنكل ، فيشار اليهـــا في علم النفس الحديث بطريقة سلبيـــة فقط . واللاهوتيون الذين يتوافقون مع علم النفس ، امثال مارتن بوبر ورينهولد نيبور ، فيرون الذات في حوار مع نفسها ومع الله في لقاء شخصي . ويمكن تقدير خلاصة هذه العلاقـــة النفسية كظاهرة . إلا ان طبيعـــة القيم ، والاهداف ، والاغراض ، والمقاصد ، والذات نفسها هي حقائق . اننا نحتاج الى مناهج

www.christianlib.com

بحث نفسية دقيقة، وعلماء نفس من النوع الناضج نضوجاً كافياً، يجعلهم ينظرون الى هذه الحقائق نظرة غير متحيزة ، ويجعلون هذه الحقائق تتكلم عن نفسها . لكننا نعرف عند هذه النقطة، مما قاله علماء النفس، ما يكفي لان يجعلنا نتتبع سيرة مختصرة لموقف علماء النفس عن الدين بهذا الاعتبار . ففي البداءة اخذ علماء النفس المبـــدأ اليوناني القديم الذي يقول « اعرف نفسك » . وبتقدم علم نفس الشخصية ، ولا سيما الدراسات التحليلية النفسية عن الذات ، اخـــذ علماء النفس مبدأ عصر الاستنارة والعلم « كن نفسك » . وفي الاعوام المتأخرة ، اذ بدأت اسس ثقافتنا وحضارتنا تهتز وتتزعزع ، صـــار علماء النفس يهتمون بصورة اكثر جدية ، بأخذ مبدأ الايمان المسيحي ، الذي لا ينفي المبدأين الآخرين ، لكنه يضعهما في مكانهما الصحيح . وصاروا يعتنقون مبدأ « ابذل نفسك » .

وليس الا في السنين الاخيرة فقط ان علم النفس بدأ يأخذ جدياً موضوع الالم وتضحية النفس بصورة ايجابية . وكان هذا عادة يفسر بانه « عقدة استشهاد » ، او يهمل كنوع من عقاب الذات. لكن فكتور فرنكل يتحدى عبـــادة اللذة ، او مذهب السرور الذي تنطوي عليه النظرية النفسية الى حد كبير ، بقوله ان للالم

www.christianlib.com

وبذل النفس والحزن والتوبة معنى « لسيرة الانسان الباطنية » ، ويمضي فيقول ان الحياة الانسانية **يمكن ان تتحقق لا بالخلق والتمتع فقط بل ايضاً بالالم .** » فان الالم قد ينضج ، ويثمر ، ويمنح الحياة معنى جديداً . وهو بقوله هـذا يقضي على تفسير الدين بانه « النجاح » . ويقول ان « عدم النجاح لا يدل على عدم المعنى » . وفي الحقيقة والواقع لقد نتج الدين العظيم من الالم العظيم ، الذي فيه رفعت النفس الى مستوى سام ، يمكّنها من ان ترى الالم بنظرة عامة ، فترى فيه معناها النهائي ومعناها الحاضر . هـذا هو الاختبار الذي كان لبولس الرسول فجعله يقول : « مبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح ابو الرأفة واله كل تعزية . الذي يعزينا في كل ضيقتنا حتى نستطيع ان نعزي الذين هم في كل ضيقة بالتعزية التي نتعزى نحن بها من الله » (٢ كورنثوس ١ : ٣ـ٤) . لكن عندما نسأل اي شيء يستحق ان نتألم لأجله ، يصبح من الضروري ان نفكر في ما سيؤول اليه علم النفس في المستقبل . وعلينا ان نذهب الى ما وراء علم النفس، كما هو الآن ، ان اردنا ان نفهم جلياً ما ينبغي ان يبذل الانسان نفسه لاجله .

www.christianlib.com

الفصل الثامن

علم النفس فيما وراء علم النفس

يقول غاردنر مورفي من عيادة مننغر الشهيرة والمحرر في دائرة علم النفس في دار هاربر واخوته للنشر ، في احد الاقسام الختامية من مؤلفه الخالد عن الشخصية انه « قد يكون هناك اثر للمسة الخوف العصبي » في الكيفية التي بها تهربت الدراسات النفسية للانسان « من حاجة الانسان الى تسوية مع الكون في مجموعه . » ثم يضيف قائلاً انه في أية دراسة مستقبلة عن الشخصية ، يجب على علماء النفس ان يجابهوا بطريقة مباشرة مشكلة « استجابة الانسان للكون ، وشعوره بوحدته وارتباطه معه ، وطبيعة مطاليبه في تذوق الجمال في الكون ، وشعوره بالوحدة او الشبع لدى تأمله فيه . » وهو يشعر ان منهج البحث مستقبلا يجب ان « يسحق » معرفة الشخصية التي لنا الآن ، وانه

www.christianlib.com

لا تستطيع أية « عقيدة جازمة » ان تمنع علماء النفس من مجابهة دراسة استجابة الانسان « للكون الذي هو (الانسان) انعكاس له . »

وفي موضع آخر من نفس الكتاب يذكر غاردنر مورفي ، انه قبل ان اكتشف الملاحون البواسل نصف الكرة الغربي في القرن الخامس عشر ، كانت النقود البرتغالية تحمل كتابة منقوشاً عليها ما معناه « لا يوجد ابعد من هذا » . وكان فوق هذه الكتابة المنقوشة صورة اعمدة هرقل. لكن بعد اكتشاف الغرب، ظلت النقود تحمل نفس الصورة وانما محيت كلمة « لا » من الكتابة تحتها ، فتغير المعنى تغيراً كلياً. وما كان يُقرأ « لا يوجد ابعد من هذا » اصبح يُقرأ « يوجد ابعد من هذا » .

لقد وقف علماء النفس على ابواب الاختبار الحسي وقالوا « لا يوجد أبعد من ادراك البشر ورغائبهم وامانيهم . » وقفوا على ابواب مناهج البحث العلمية المعروفة وقالوا انه لا توجد دائرة اختبار ، الا ما استطاعوا ان يدرسوه بطرقهم ووسائلهم . الا ان بعضاً منهم ، وهم عدد قليل ، قد ابحروا في مناطق مجهولة مع الفلاسفة واللاهوتيين . وعادوا يقولون « يوجد أبعد من هذا . » ترى ماذا يقولون عن طبيعة هذا « اللابعد . » ؟

www.christianlib.com

هناك محلل نفساني آخر ، أقل شهرة ، وهو اوتو رانك الذي كتب اول كتاب له باللغة الانكليزية في عام ١٩٣٩ قبل موته مباشرة . وكان قد سافر الى امريكا لاجئاً من اوربا . وقد جاء في التمهيد لكتابه هذا القول : « ان الكتاب وان كان يحوي جوهر ثقافة رانك وتضلعه من دراسة العالم القديم ، الا انه يعلن ما وراء ذلك من حياة جديدة ، وجدها لنفسه في هذه البلاد (الولايات المتحدة) . » ويقول رانك نفسه أنه حاول في هذا الكتاب ان « يصور الحياة البشرية » ليس فقط كما درسها لمدة اكثر من جيل ، بل كما حصل عليها لنفسه بالاختبار ، « بدون اضطرار لتغييرها حسب عقيدة من وضع الانسان . » ومن الطريف انه جعل عنوان كتابه « ما وراء علم النفس . » وقد أشار الى ازمة في علم النفس ، تشاهد واضحة في هذه الايام ، مشدداً على ان النظرية النفسية تتكيف بالعقائد الروحية الأشد انتشاراً في ايامها ، كما تتكيف أيضاً اية نظرية اخرى . لهذا بدأ ان يتلمس محاولاً الوصول الى اطار اوسع فيه لا يتكلم الانسان ويفكر فقط بل فيه أيضاً يحيا وجودياً . وبدأ يحاول ان يفهم ويدرك « ما وراء علم النفس . » وقد قدم لنا مساعدة حقيقية في اظهار هذا الاقليم المجهول في مستقبل علم النفس .

www.christianlib.com

ونحن ، عندما نحاول ان نصل الى مـــا وراء علم النفس ، نُجَرّب ان نستسلم للافتراض اننا قد فعلنا ذلك عندما نتحول الى دراسة نفسية اجتماعية او جماعية . اننا نفعل هذا بالتحول من دراسة نفسية فردية بحتة تتصور الفرد كوحدة منعزلة قائمة بنفسها ، الى دراسة نفسية اجتماعيـــة تشدد على العلاقات المتبادلة بين الناس . ولكن حتى في هذا لم نصل بعد الى فهم كاف للاقاليم المجهولة في الطبيعة البشرية . وهـــذا الافتراض يمكن ان يقصر الحياة الروحية على مطاليب المجتمع الضوضائية ، وبهذا تكون ديانة الشخص مجرد مجموع علاقاته الاجتماعية ، وقد رفعت الى اعلى درجة . ويقول رانك انه هو نفسه قد اضطر الى ان يذهب الى ابعد من هذا . واستخلص من بحثه ان هناك اساساً للطبيعـــة البشرية ــ يجب الوصول اليه ــ ويقع فيما وراء أي علم نفس ، فردياً كان او جماعياً . ثم يمضي فيصرح بان « علم النفس الحديث قد حاول المستحيل . » انه حاول ان يجعل غير المنطقي منطقياً . ويقول ان هناك شيئاً في البشر « لا ينسجم مـــع النهج المنطقي للامور » . لذلك « لا يكفي ان نرى اهمية العنصر غير المنطقي في الحياة البشرية ونبسطه في تعبيرات منطقية . » فاننـــا كلما حاولنـــا ذلك وجدنا ان « الانسان مولود فيما وراء علم النفس

www.christianlib.com

ويموت فيما وراءه ، ولكنه يستطيع ان يحيا فيما وراءه فقط بواسطة اختبار حيوي شخصي خاص به ــ بتعبيرات دينية ، عن طريق الوحي ، او الاهتداء او الولادة الثانية . » بل حتى محاولة جعل هذه الوقائع منطقية فلسفياً ولاهوتياً لا تكفي ، ويجب ان نذهب الى ما هو ابعد من ذلك . ولقد عبر الفرد ادلر عن ذلك بان هذه الوقائع لا تفهم بمجرد كلام او شرح افكار ، بل لا بد لنا من ان نذهب الى ما هو ابعد من هذه التعابير الحرفية . ونفعل ذلك ليس بترك التعابير عن الوقائع جانباً بل باختبار الوقائع في الصميم فنسموكـ « كائنات بشرية لا تحتاج الى مفسر . »

ان علماء النفس في هذه الايام قد صاروا يزدادون اهتماماً بهذا « الميلاد الثاني » للنفس الذي يتحدث عنه رانك . واذ يكدّون في البحث عن رأي ديني شامل كاف ، وصلوا في ابحاثهم الى ثلاثة امور : اولا لقد حاولوا ان يفصلوا الاختبار الديني عن التعابير الثقافية والتهذيبية عنه . وقد ميزوا بين « الدين » و « الاختبار الديني » . فيقول جون ديوي مثلاً أن الاعتقادات الفائقة الطبيعة قد اضعفت موقف الانسان الديني وجففته ، وأنه لا يمكن التوفيق بين القيم الدينية ، كما اراها ، وبين الدين ، لسبب تناقضهما . وحيث ان اطلاق هذه القيم مهم جداً ، لذلك

www.christianlib.com

يجب فصم عرى الارتباط مع العقائد والمذاهب الدينية . وعلماء النفس المختصون بالتهـذيب وهم يعملون عن طريق وسائل التهذيب الدنيوي قد عرّفوا هذا الايمان المشترك الذي يشير اليه ديوي بعبارة « القيم الخلقية والروحية » . وقد اختصروا بطريقة منظمة الاختبار الديني الى المعدود الاصغر المشترك في كل تراث البشرية العظيم دينياً. وكذلك الحال مع س. ج. يونغ فقد خطط حدود « الدين » وفصله عن العبادة والعقيدة « مدركاً ان تأثير الكنيسة كان تعطيل نمو أي دين شخصي حقيقي ... » وهنـاك نتيجة جانبيـة غير متعمدة ، لمحاولة التسامي والتنزه عن الميزات الثقافية الاقليمية للدين ، وهي فصل القيم والاختبارات الدينيـة عن العلاقات الحيوية بالكنائس . فالاختبار الديني قـد يصبح روحانياً سماوياً ، بدرجة معها يهمل نظام الكنائس وعملها القائم . وفي أغلب الاحيان نجد هذا الاهمال يترك الكنائس الى العناصر الاكثر بدائية والأقل تفكيراً في المجتمع ، وبذلك يخلد نفس الامر الذي يسعى علماء النفس ان يحولوه ويبدلوه . هذا هو خطأ الكثير من التفكير السفسطائي المنتشر عن الدين ، وهو ليس من ميزات علماء النفس بنوع خاص ، وانما يصدق ، في كثير من الاحيان ، على اساتذة اللاهوت .

www.christianlib.com

ناحية اخرى للتقرب تبدو في فكر علماء النفس ونشاطهم ، وهم يتخطون الى « ما وراء » علم النفس التجريبي ، الى دائرة الدين نفسه ، وتظهر في افتتانهم بتفسيرات الحياة والعالم تفسيرات تؤدي الى محو الصفة الشخصية للطبيعة النهائية والمصير النهائي للانسان ولله . ونجد مثلاً لهذا في مؤلف غاردنر مورفي الخالد ، عن الشخصية . وهو يتكلم عن « الوحدة الاساسية التي شخصياتها الفردية قطرات صغيرة . » وعندما يتكلم عن علماء نفس الشخصية ، وهم يدمجون مقررات ابحاثهم « مع المدارك السابقة من النوع الغريزي او النوع الشعري » نعجب ونتساءل الى أي مصادر يشير . ونشعر انه يشير الى نوع من مذهب الوهية الكون ، ولا يشير الى الالوهية الشخصية الظاهرة بشكل واضح في الايمان المسيحي . « ان الوحدة الاساسية التي شخصياتها الفردية قطرات صغيرة » يمكن ان تعتبر انحرافاً نحو البوذية ، لان الهدف النهائي للمتدين عند البوذي ، هو التخلص من الوجود الى اللاوجود السعيد . وهذا ما يسمى « نرفانا » وهي كلمة سنسكريتية معناها الفناء . ومن الصعب ان نقول ان كان مورفي يتحدث من هذه الوجهة أم لا ، لان كتاباته لا تبحث هذه القضية بنوع خاص . مع ذلك فان نزع الصفة الشخصية الظاهر

www.christianlib.com

هنا ، يناقض الصفة الشخصية لمصير الانسان ولطبيعة الله .

هذا الرأي يشير الى الحاجة الملحة الى تفسير مسيحي صريح، عن معلومات علماء النفس، بخصوص طبيعة الشخصية واهدافها. ونلاحظ ثالثاً ان عدداً قليلاً من علماء النفس تكلموا في هـذه النقطة . هذا لا يعني انهم بدأوا يحولون الحقائق التي اكتشفها علماء النفس ، حتى تنسجم مع الفكر المسيحي عن الشخصية . بل يعني بالاحرى ان علماء النفس هم في مأمن كاف شخصيـاً ومهنياً ، يمكنهم ان يتخذوا الفكر المسيحي للانسان ، ويقدّروه بدون شعور تام بالرفض ، او حاجـة وثنية للجزم العقائدي القاطع .

من موقف التوازن هذا تحدث اوتو رانك بصراحة تامة في الفصل الذي عنوانه « خلق الشخصية » فقـال « لا يمكن التخلص من الدين المسيحي كمجرد تطور للافكار اليونانيـة للفـداء ، لكنه دين اصلي من ذاته ، لا يمكن ان تقارن به في الروحانية سوى الانظمة الدينية في الشرق الاقصى . » ويبحث رانك بحثاً دقيقاً تفسير بولس لتجديده في طريق دمشق ، كقيامة الرب يسوع المسيح من الاموات في نفس بولس ذاتها ، الذي به بولس نفسه قد « اقيم من الاموات ، وعـاش ، واصبح لا

www.christianlib.com

ينتظر فيما بعد مستقبلا غير معين فيه يحيا حياته على الارض . »
ويبين ان قيامة المسيح هذه في الانسان ميسورة لكل شخص في الوقت الحاضر كاختبار شخصي وان الانسان العادي يستطيع ان يحصل على ذات جديدة ويصبح نموذجاً للانسان العادي ، بل في الحقيقة ، للبشرية جمعاء .

يقول رانك ان الادراك المسيحي لخلق شخصيـــة جديدة ، نفس جديدة ، ينفي الفكرة الشرقيـــة للميلاد الثاني ، كما ينفي الفكرة اليهودية للحياة بعد الموت بقيامة الجسد . وبدلا عن ذلك يأتي كائن من نوع جديد هنا والآن ، اي تخلق شخصية جديدة ، تولد حياة جديدة في المسيح . هذا ليس فداء لافراد محظوظين او جماعات ممتازة ، بل هو فكرة روحية عن مولد حياة جديدة لكل فرد ولكل البشرية. ويمضي رانك فيقول ان بولس الرسول وضع فهماً وادراكاً للعلاج الديناميكي الفعال للحياة البشرية ، العلاج الذي « يخلق الذاتيـــة » . ففي اشارته الى موت يسوع المسيح يقول رانك : « ان هـــذا لم يكن ذبيحة او كفارة عن عصيان ضد الله الآب ، بل تعبيراً للفرد المتحرر ، الذي يشعر بأنه سيد حياته وموته ، وبأنه حر ان يختار اباً ان اراد ذلك . » علاوة على ذلك يقول ان المسيحية « تمثل بقدر مـــا نعلم المحاولة

www.christianlib.com

الوحيدة الناجحة لتكوين مبدأ مصالحة بمحبـــة متبادلة بين الله والانسان . » ويعبر رانك عن أمله في ظهور انتعاش للفلسفة المسيحية للحياة ، يقاوم العقائد المضادة للدين الدنيوي العصري ، فيقول ان « الجماهير لا تزال مبتلعـــة ابتلاعاً عميقاً في تقاليد اسلافهم الدينية . أما أن العـــدد القليل من اصحاب العقول الراجحة قد ادخلوا اصطلاحات جديدة في اللغة الشائعة ، فلا يغير المشاعر الدينية العميقة التي يحتضنها معظم النـــاس ومنهم هؤلاء العقلاء اصحاب العقول الراجحة انفسهم . »

هذه التأكيدات التي يصرح بها اوتو رانك هي فريدة نسبياً في مؤلفـــات علم النفس المعاصر . انما هي تمثل محاولات لعالم نفسي واحد في الذهاب الى ما وراء الموقف الذي تميل المعلومات الاساسية في حقل علم النفس ، وخصوصاً علم نفس الشخصية ، ان تقود علماء النفس حتماً اليه .

ومع ذلك فان الخدمات التي قدمها رانك جديرة بان تصنف في دائرة الانعكاس الشخصي ، لا ان يرفض دوره كرجل باحث في علم النفس . ان الحاجة الرئيسية للدين ، في علاقته بعلم النفس ، هي الى طريقة علمية اكثر ملاءمة لدرس الحيـــاة الدينية وسلوك الناس . ولقد صدق تالكوت بارسونز في قوله ان المسيحية ، من

www.christianlib.com

امهات العلوم . لقد سرنا على افتراض ان العلم مصدر من مصادر اعلان الله ، اي ان الله يمكن ان يعرف عن طريق أعماله. ويقول بارسونز « انه ليس صدفة ان تكون الحضارة المسيحية ام العلم... فان الدراسة العلمية للدين ذاته هي تطور منطقي ونتيجة حتمية للمسيحية ذاتها . »

لكن لا بد لاي فرع من العلوم ان يبلغ درجة محسوسة من النضوج قبل ان يكون مجرداً من التحيز ، ولو جزئياً ، في نظره الى « امه » المسيحية . لقد بدأنا الكتاب بالقول ان علم النفس علم حديث ، وانه في دور النضوج . وقد دعاه رانك « آخر ابنـــاء الدين واصغرهم . » فنحن ربما ننتظر اكثر من اللازم ، اذا ما طلبنا الآن من اصغر ابناء ايماننا ، ان يكون مجرداً من التحيز في نظره الى امه . لكننا مع ذلك سنظل نطلب منه هذا الامر .

اننا نطلب من علم النفس نضوجاً لم تظهر بوادره الا مؤخراً. ولكن علم النفس لم ينتج ذلك النضوج بعد . ونحن نطلب علم نفس يعالج المشاكل الكبرى ، ويستعين بوسائل تحلها ، ولا يكتفي بمعالجة المسائل الصغرى ، لانها صدفة تتفق مع وسائل الدراسة التي يعرفها العالم النفساني من قبل . وبكلمات روبرت مكلويد نقول « ان الاساليب لعلم النفس المأثور قد فشلت الى

www.christianlib.com

الآن في مدنا بعلم نفس سليم عن الدين . فان اردنا ان نصمم اساليب جديدة اوفى ، فعلينا ان نبدأ بمحاولة ابعـــاد ابطالنا التقليديين ، ونلقي نظرة جديدة على الظواهر . نحتـاج الى علم نفس صلاحيته ان تنبِّه الى اسئلة يجب ان تسأل ، بسبب اهميتها ، وليس بسبب وجود طريقة مرتبة سبق ابتكارها .

مع ذلك فهذه هي المسؤوليـــة التي تقع على عاتق اللاهوتي المسيحي ، كما تقع على عاتق عالم النفس . قال اميـــل برونر ، اللاهوتي السويسري الشهير : « هناك علم نفس لا يتأثر ، على الاقل جزئياً ، بالايمان او عدم الايمـان . هو معرفة حقائق عن الانسان ، وعلى المسيحي ان ينسجها في صورته عن الانسان ، ككل شخص آخر . » وقال ايضاً كارل بارت : « ان معرفة كهذه لا يمكن ان تكون عدواً لاقرار الايمان المسيحي . »

ولا بد ان يتقن اللاهوتيون مجموعة المعرفة هذه ، كما لا بد ان تصبح محتويات الايمان المسيحي جزءاً من ثقافة عالم النفس ، اذا اردنا الحصول على ادراك مسيحي واضح لعلم النفس عن الدين . ان المسائل النهائيـــة لعلم النفس هي الاهتمامات الاولية للدين . وعلينا ان نشكر علماء النفس المعاصرين ، لجهودهم الصابرة ، اولئك الذين عملوا في مواقع الحدود ما بين التفسير الآلي البحت

www.christianlib.com

للحياة، والتفسير الهادف الواضح الذي يميز الايمان المسيحي. فقد جاءوا بنا الى ارض الميعاد للايمان المسيحي ، وذكرونا انه كما ان الله خالقنا ونحن خلائقه ، هكذا هو في المسيح فادينا ، ونحن موضوع محبته في المسيح . وبهذا تظل عمليـــة الخلق في معجزة الشخصية البشرية .

www.christianlib.com

المحتـــويات

مقدمة ٣

١ ــ ما هو علم النفس ؟ ٥

٢ ــ أين يسكت علم النفس في موضوع الدين ؟ . . ١٩

٣ ــ الدين : هل هو استعباد للاصنام ام حرية للنمو ؟ . ٣١

٤ ــ الدين : هل هو « هوى صبياني » أم طريق للبلوغ ؟ ٤٤

٥ ــ الدين : هل هو مرض ام سبيل الى الصحة ؟ . . ٥٥

٦ ــ الدين : هل هو تضليل ام طريق الى الحقيقة ؟ . ٦٨

٧ ــ البحث عن المعنى النهائي في الحياة . . . ٨٢

٨ ــ علم النفس فيما وراء علم النفس ٩٤

www.christianlib.com

www.christianlib.com

كتب للمفكرين

الحياة الدينية ، لهاركنس . يصف هذا الكتاب فوائد الحياة الدينية والعوائق التي تعترضها كما انه يصف طريق الابتداء بها . وهو موجه للذين يدركون اهمية الحياة الدينية الا انهم لا يعرفون السبيل الى حياة دينية فعالة مناسبة لعصرنا المضطرب .

١٠٠ غ.ل

المسيحي في العالم الحاضر ، لماستن : ما معنى كون الانسان مسيحياً ؟ ما هي رسالة المسيحية للعائلة ؟ للدولة ؟ لحياة الانسان الاقتصادية ؟ هل للمسيحي مسؤولية تجاه العالم وازمة الحضارة في عصرنا ؟ ١٢٥ غ.ل

المسيح حياتنا ، لهارنج . ارجع مع المؤلف الى عصر المسيحيين الاولين وادرك معنى الرسالة الى أهل فيلبي بوضوح فائق . ١٢٥ غ.ل

هكذا هو مكتوب ، لكويرز . درس دقيق لقصد الله الشامل الشعوب كلها منذ البدء . ١٢٥ غ.ل

الاتّباع ، لبونهوفر . هو أكبر مؤلفات ديترش بونهوفر الشهيد الالماني الذي له الأثر البليغ على التفكير المسيحي في هذه الايام . وفي هذا الكتاب يشرح بونهوفر المعنى الحقيقي لاتّباع المسيح ولموعظة المسيح المشهورة على الجبل .
٢٠٠ غ.ل

اطلب هذه الكتب وغيرها من الكتب القيمة
في شتى المواضيع الهامة ، من

المنشورات المعمدانية
ص.ب ٢٠٢٦ بيروت